

چوتھ

هرمن ودروتيه

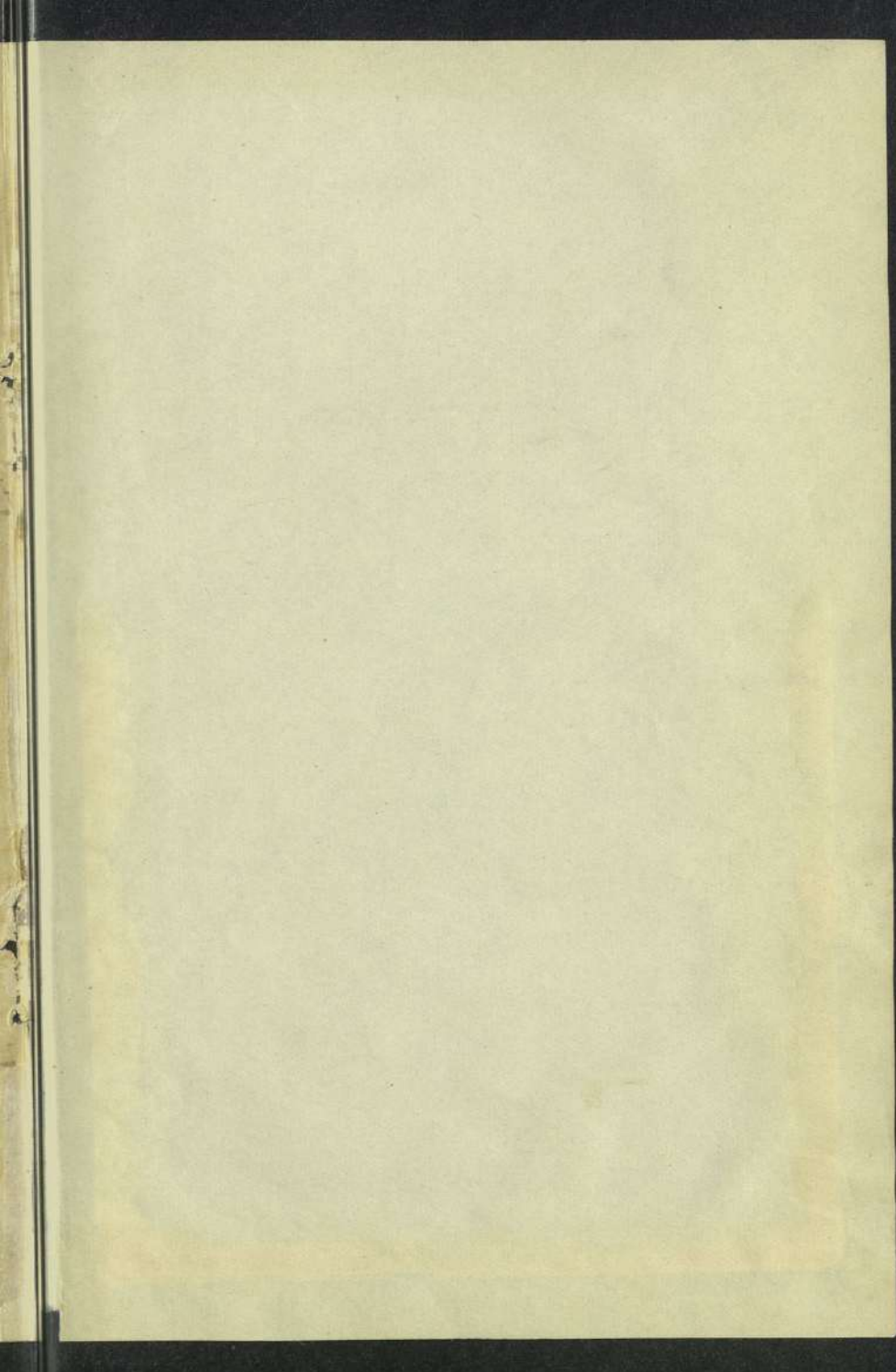
موسس
لوسبر

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY

Handwritten text, possibly a title or name, appearing faintly in the center of the page.



مُتْنَةُ التَّأْلِيفِ وَالتَّرْجُمَةِ وَالنَّسْرِ

هرمن ودروثيه

Hermann und Dorothea

....

للشاعر الكبير

يوهان ولفجانج فون جوته

GOETHE

....

نقلها عن الألمانية

محمد عوض محمد

....

ومقدمة الكتاب للأستاذ الدكتور طه حسين

....

طبع بالقاهرة

بمطبعة فاروق ٢٨ شارع المدانغ

١٩٣٣



٥٤١.١٣١٥٨.٥٣



مقدمة

أُتيح لي منذ أكثر من عشر سنين أن أقدم الى قراء العربية في الشرق جوته حين قدمت اليهم ترجمة صديقي الزيات لآلام فرتر . وأُتيح لي بعد ذلك بأعوام أن أتحدث الى قراء اللغة العربية في الشرق عن جوته مرة أخرى حين قدمت اليهم ترجمة صديقي عوض لقصة فاوست . ويتاح لي اليوم أن أتحدث الى قراء العربية في الشرق مرة ثالثة عن جوته وأنا أقدم اليهم ترجمة صديقي عوض لهذه الآية الخالدة من آيات جوته وهي قصة «هرمن ودروتيه» وأنا أكتب هذا الفصل وفي نفسي عاطفتان قويتان تبعثان فيها السرور والغبطة وتملآنها بالرضى والابتهاج : احداهما عاطفة الأثرة التي يمتتها الناس عادة ويذمها فلاسفة الأخلاق دائماً والتي لا تُخرج من أن أقبلها الآن وأستعذب الشعور بها لحظات قصارا لأني انسان أجده ما يحده الناس من هذه العواطف التي تنشأ عن الضعف فتملاً النفس غرورا وتبعث فيها الحاجة الى الفخر . ومالى لا أستعذب هذا الضعف ولا أستلذ الحاجة الى الفخر . وليس من الأشياء اليسيرة ولا القليلة الخطر ، أن يختصك الله بهذه النعمة .

نعمة التعريف بجوته وتقديمه وتقديم شيء من آثاره الخالدة الى
أجيال الشرق العربي على اختلافها .

لقد كنت ومازلت أشعر وأنا أقدم هذا الشاعر الفيلسوف
العظيم الى أهل الشرق انى أستقبله فى دارى وأقدم اليه من ألوان
التضييف والاكرام ما أقدر عليه وما هو أهل لأضعافه . وأى
شرف أحسن فى النفس وقعاً وأدعى الى الفخر والكبرياء من استقبال
هذا الرجل العظيم وتقديمه الى الشرقيين بل تقديم الشرقيين اليه
ولاسيما بعد أن مضت الأعوام بشخصيته الفردية والوطنية وجعلته
رجلاً انسانياً عالمياً فوق الفرد وفوق الأمة الألمانية التى أنجبته
وفوق العصر الذى عاش فيه بل فوق العصور جميعاً . ويزيد هذه
العاطفة فى نفسى قوة وبها استئناراً انى لم أكّد أقدم جوته الى
الشرقيين حتى أحبوه وأقبلوا عليه يقرأونه ويدرسونه ويلتمسون
عنده غذاء العقل والعاطفة والشعور ؛ فلم تكذب تظهر آلام فتر
وتذيع فى الناس حتى أساغوها واستعذبوها وطلبوا المزيد من آثار
هذا الرجل العظيم . فظهرت لهم قصة فاوست فاذا هم يجدون فيها
مزاجاً قيماً بديعاً من الأدب الرائع والفن الرفيع والفلسفة العليا ،
واذا هم يقرأون ويدرسون ويستزيدون واذا صديقى عوض يلى
هذا الدعاء ويستجيب لهذا النداء فيترجم لهم هذه الآية التى أقدمها
الى القراء اليوم وهى قصة «هرمن ودروتيه» .

هذه احدى العاطفتين اللتين أشعر بهما وأنا أكتب هذا الفصل . فأما العاطفة الأخرى فقد تحدثت عنها وأنا أتحدث عن العاطفة الأولى . ذلك انى أشعر بشيء من الاثار وحب الخير للناس جميعاً وأشعر بشيء من الغبطة حين أراهم يظفرون بهذا الخير الممتاز الذى يهديه اليهم الأدباء والعلماء من حين الى حين فيرفهون عليهم ويريحونهم ساعات أو أياماً من هذا العناء الطويل الثقيل الجاف الحشن : عناء الحياة .

ذلك انى لم أقرأ كتاباً يعجبني ولم أستمتع بأثر من الآثار الأدبية الرائعة إلا ازددت إعجاباً بهذا التشبيه الشائع الذى يصور الحياة كأنها صحراء عريضة مقفرة ، محرقة الشمس غليظة الأرض ، مضطربة الريح كثيرة الرمال ، تدفع فيها دفعاً لا قبل لنا بمقاومته فنلقى فيها الأهوال والخطوب ولكن الأدب والفن والفلسفة تتيح لنا من حين الى حين أن نستريح من هذا الجهد المضنى حين نلقى فى بعض الطريق وسط هذه الصحراء المهابكة واحدة نضرة ، فيها الشجر والزهر ، والروض والماء العذب ، والنسيم الخلو العليل .

فهل يستطيع الناس أن يشكروا للشعراء والكتاب والفنيين والفلاسفة ما يسدون اليهم من نعمة وما يقدمون اليهم من معروف حين ينشئون لهم هذه الوحات التى يطمشون فيها ويحسدون فيها

نشاطهم ويزدقون من نعميها وبهجتها ولذتها ما يعينهم على المضى في
سفرهم الطويل الشاق؟ وهل يستطيع الشرقيون أن يشكروا لهؤلاء
الأدباء الذين يترجمون لهم آيات الأدب والفن والفلسفة فيتيحون
لهم من النعمة ما أتيح للأمم التي نبغ فيها عظماء الرجال وينسون
أنفسهم ويمحون شخصياتهم ويقنعون بمكان المترجم ، الذي ليس
هو بالقارىء المستريح ولا المنتج النابغة ، ولكنه صلة بين الرجلين ؛
لاحظ له من راحة الأول ولاحظ له من مجد الثانى وانما هو خادم
مخلص مؤثر أمين يرفع القارىء الى حيث يذوق جمال الفن وجلاله ؛
ويسق لآثار النابهين من الأدباء والفلاسفة طرقا جديدة الى عقول الناس
وقلوبهم . ويتيح لهم بسط سلطانهم الخير على مختلف البيئات والأجيال .
هذه منزلة المترجم بين المستجيبين والمستهلكين فى الفن والأدب
والفلسفة كما يقول أصحاب الاقتصاد : يراها الناس يسيرة وأراها
عظيمة جليلة الخطر وحسبك انها هى التى تحقق الصلة القوية بين
الأجيال والشعوب فتزيل ما بينهم من الفروق ، وتدنى بعضهم من
بعض ، وتقربهم من هذا المثل الأعلى الذى يقوم على رقى العقل
والخلق والشعور وحب الخير والاخلاص فى طلب السلام .
فلنعرف لهم ذلك على أقل تقدير اذا لم نستطع أن نجزيهم بخير
منه على ما يسدون الى الافراد والجماعات من مأثرة وما يهدون
اليهم من جميل .

فرغ جوته في أواسط سنة ١٧٩٦ من قصته البديعة، ولهم ميسر، وأرسل آخر جزء من أجزاءها الى صديقه شيلر وأعلن اليه في كتاب أرسله مع هذا الجزء انه يريد أن يستريح من العناء الذي لقيه في وضع هذه القصة بوضع قصة أخرى غرامية أبطالها من أهل المدن. وكان كل شيء حول جوته يدفعه الى وضع هذه القصة والى وضعها على هذا النحو الذي سيراه القراء حين يقرأون هذه الترجمة التي أقدمها اليهم.

كانت الثورة الفرنسية قد غيرت نظام الطبقات التي تتألف منها الجماعة فازالت الفروق السياسية والاجتماعية وسوت بين الناس في الحقوق والواجبات ورفعت من شأن الطبقات الوسطى من أهل المدن لأن هذه الطبقات كانت راقية مهيأة للنهوض بأعباء الحياة العامة واحتمال تبعاتها والاستمتاع بما فيها من منفعة وقوة وسلطان. ازالَت الثورة الفرنسية سلطان الاشراف ولكنها لم تنقله الى الطبقات الدنيا لأن هذه الطبقات لم تكن مهيأة للنهوض بهفا كتفت بنقله الى الطبقات الوسطى؛ وتركت للاشتراكية التمهيد لسيادة العمال ومن اليهم فكان الشعور في أوروبا كلها وفي فرنسا وجاراتها خاصة قويا لأن عصر السيادة والعزة للطبقات الوسطى قد أظل

الانسانية فلا غرابة في أن تنبعث الحياة القوية الخصبية في نفوس
هذه الطبقات وفي أن تضطر الفلاسفة والأدباء إلى العناية بها والتفكير
فيها ولا غرابة في أن يفكر جوته في أن يتخذ منها ابطلا لقصصه
وآثاره المختلفة .

وكان الشاعر الألماني فوس قد وضع قصة شعرية وصف فيها
الحب ونشأته بين المحبين وتداني هذين المحبين حتى تكون الخطبة
ثم يكون الزواج وما يحيط بهذا كله من لذة وبهجة ومن ألم وحزن
ثم من رضى وابتهاج . وكان عنوان هذه القصة « لويز » وكان
الألمانيون قد قفوا بها حين ظهرت سنة ١٧٨٤ . وكان جوت نفسه
من أشد الناس حباً لها وافتاناً بها . وأنت تعلم أن من أحص
خصال الشاعر وأقواها وأشدّها تأثيراً في حياته الفنية أنه لا يكاد
يعجب بأثر من الآثار الأدبية حتى يود لو استطاع أن يحاكيه
ويشئ مثله . وكان جوت كما تعرف مشغولاً بالأدب اليوناني
وبالقصص والتمثيل منه خاصة . وكان شديد الحرص على أن
يحاكي هذا الأدب ويحتذيه ويشئ مثله . وكان لا يتهيب شعراء
التمثيل اليونانيين ولكنه كان يكبر هوميروس ويخافه ولا يكاد
يحدث نفسه بالطمع في محاكاته أو مجاراته . ولكن عالماً ألمانيا هو
وولف كان قد نهض في هذا العصر إلى هذا المعبد الذي كان يقيم
فيه صنم هوميروس ففتحه ودخله وزار حجراته وغرفاته ثم خرج

فأعلن إلى الناس أنه لم يجد صنفاً واحداً وإنما وجد أصناماً ، وأن
هو ميروس ليس كما كان الناس يعتقدون ، هذا الشاعر الإلهي العظيم
الذي لا يجارى ولا يبارى ، وإنما هو في أكبر الظن شاعر نابغة
قد جراه من غير شك كثير من الشعراء فبرعوا كما برع ونبغوا
كما نبغ ونسبت آثارهم الخالدة إليه دونهم ، فزعم الناس أنه وحده
صاحب « الإلياذة » و « الأودسيا » ، على حين أن نصيبه من هاتين
الآيتين يسير .

فلم يكند جوته يقرأ ما كتبه وولف حتى أحس الشجاعة على
أن يجارى شعراء « الإلياذة » و « الأودسيا » كما جارى شعراء
التمثيل . وكتب إلى وولف يذكر له مثله إلى أن يكون أحد
هؤلاء الشعراء الهوميريين .

وكانت الأنباء قد استفاضت بفتنة دينية في مدينة سلزبورج
انتهت بطرد البروتستنتيين منها ، فهاجر هؤلاء في حالة سيئة ،
ومروا في هجرتهم هذه بأحدى المدين نخرج الناس ينظرون
اليهم ، وكان بين هؤلاء الناس شاب رأى بين المهاجرين فتاة راقته
فأحبها ولكنه لم يعلن إليها الحب ، وإنما طلب إليها أن تتبعه على
أن تكون خادماً لأسرته فقبلت . فلما انتهت معه إلى البيت أعلنت
الخطبة وقبلتها الفتاة ، وقدمت إلى الفتى شيئاً من النقد كانت تحمله
أهدته إليه مهرأ لها .

فلما انتهت هذه القصة الى جوته في هذه الظروف التي كانت تحيط به والتي أجمعتها لك آنفاً كان كل شيء قد تم ، ليستطيع شاعرنا العظيم أن يضع هذه القصة الشعرية التي يستريح بها من العناء الذي لقيه في تأليف قصة « ولهم ميستر » .

ليس ما يمنعه من محاكاة هوميروس فقد حاكاه الشعراء من قبله وليس ما يمنعه من أن يجارى « فوس » ويضع قصة كقصته « لويز » ، وليس ما يمنعه من أن يلائم بين هذين الميلين فيحاكى في قصة واحدة الشاعر اليونانى القديم والشاعر الألمانى الحديث .

أما محاكاة الشاعر الألمانى فيسيرة سهلة لامشقة فيها ولا عناء وليس من شك في أن الفوز فيها محقق لعبقرية جوته . ولكن الخطر كل الخطر والعسر كل العسر في محاكاة هوميروس وللشعر الحماسى كما نجده في الالليادة والاولديا شروط وأصول منها ما يتصل بموضوعه ومنها ما يتصل بشكله وصورته ، وليس من اليسير على جوته أن يرعى هذه الأصول ويحقق هذه الشروط ولئن فعل فلن يكون من اليسير أن يذوقه الناس ويعجبوا به . فالشعر الحماسى لم يقبل إلى أيام جوته أن يكون له موضوع غير الحوادث الخارقة العالية التي تتصل بالأبطال والآلهة وكل محاولة للنزول بهذا الشعر عن هذه المنزلة قد لقيت الاخفاق . والشعر الحماسى في حاجة إلى وزن خاص هو هنا الوزن السداسى الذى لم يألفه الألمان ولم

تستقيم له اللغة الألمانية . والشعر الحماسي يحتاج في ألفاظه وأساليبه
إلى شيء عظيم من الفخامة والضخامة والجلال الذي يبهز العقل
والخيال ويملأ السمع والقلب معاً . فكيف السبيل إلى تحقيق هذا
كله وكيف السبيل بعد تحقيقه إلى حمل الناس على قبوله وإساغته .
هذه هي المعضلة التي فرضت نفسها على جوته حين فكر في
إنشاء قصته الغرامية . ولكن جوته ليس رجلاً مثلك ومثلي وإنما
هو رجل نابغة فذ ، تستطيع المعضلات أن تفرض نفسها عليه
ويستطيع هو أن يجد لها الحل وأن يفرضه عليها . وكذلك فعل
ونحدثنا شيلر في بعض كتبه إلى صديق له أنه هو وامرأته لم يكونا
يديران بأي الأمرين يعجبان من جوته حين يضع هذه القصة
فيطلعهما على خمسين ومئة بيت في اليوم أيعجبان بهذا الشعر أم
يعجبان بسهولة تأتية للشاعر وسرعة الشاعر في إنشائه . ويقارن شيلر
في شيء من الإعجاب والحزن بين نفسه وبين جوته فينبأ هو يجهد
نفسه ويكلفها ألوان العناء ليخرج للناس أدباً لا يكاد يرضاه إذا جوته
يهز شجرة نبوغه فيساقط عليه منها الذئثار طعماً وأكبرها حجماً .
وقد كان شيلر موفقاً في هذه المقارنة موفقاً في إعجابه ببراعة
جوته وخصب قريحته فقد انتقاد له الشعر ووضع هذه القصة في
أقصر وقت وتكلف فيها أقل عناء وجاءت على هذه السرعة والسهولة
من أحسن الآيات التي أخرجها للناس .

يحتاج الشعر الحماسي الى موضوع له خطر وجلال وقد وفق
جوته الى هذا الموضوع وهو الثورة الفرنسية . وأين تقع حرب
طروادة من الثورة الفرنسية ! ولكن جوته لم يتخذ الثورة أصلاً
للقصة وإنما اتخذها إطاراً لها ورأى أن هذا يكفي لارضاء إلهة
الشعر القصصى . فاما أبطال هذه القصة . فقد اختارهم جوته بين
هذه الطبقة الوسطى التي ظهرت بالسيادة الفعلية في فرنسا والتي
طمح الى السيادة في ألمانيا . وقد أحس جوته من إلهة الشعر
القصصى نفوراً من هؤلاء الأبطال العاديين ان صح هذا التعبير
ولكنه استطاع أن يزيل هذا النفور وأن يطلق لسان الشعر
القصصى بمآثر هؤلاء الأبطال .

هل أنا في حاجة الى أن الخصل لك هذه القصة التي هي بين يديك؟
لا بد من ذلك في أسطر قليلة لتري موضع البراعة في قصة جوته :
قوم من الألمان المجاورين لفرنسا قد رأوا الثورة فقتلوا بها
وخلبتهم مبادئها العالية ولكنهم لم يلبثوا ان رأوا ما أثار من
الحروب واذا هي تطردهم من بلادهم واذا هم يعبرون الرين مشردين .
وهم في طريقهم يمرون بمدينة ألمانية صغيرة فتبتدى القصة في هذا
المكان . تبتدى فيه وتنتهى فيه في أقل من يوم . ذلك ان أهل المدينة
قد هرعوا الى الطريق العامة ليروا هؤلاء المشردين وليحملوا اليهم
ما يستطيعون تقديمه من المؤونة . وكان بين أهل المدينة فتى هو

هرمن أبوه صاحب فندق وقد خرج يحمل الى هؤلاء المشردين
ما جمعت له أمه من طعام وشراب وكسوة فرأى بين هؤلاء الناس
فتاة بارعة الجمال رزينة رصينة لم يكدرها ويتحدث إليها حتى
شغفت قلبه فعاد الى أسرته وقد جن بها جنوناً.

وكان أبوه وأمه شديدي الرغبة في تزويجه ، وفي تزويجه من فتاة
غنية لها ثروة ضخمة ومكان رفيع في المدينة . وكان أبوه شديد
الحرص على هذا الزواج لأن فيه الثروة والرفعة معاً ولكن الفتى
لم يظهر ميلاً الى هذا الزواج بل أظهر منه نفوراً وعنه أזורاراً
فسخط أبوه واشتد سخطه وانصرف الفتى محزوناً كثيراً ثم تتبعه
أمه باحثة عنه حتى تظفر به في ظل شجرة فاذا هو يأس قد اعتزم
أن يقضى ما بقي من أيامه في الحرب دفاعاً عن مدينته ان تعرضت للخطر .
وما تزال أمه به حتى تعلم علمه واذا هو مشغوف بهذه المهاجرة
يريد أن يتخذها له زوجاً وما أسرع ما تطيب أمه نفسها بهذه الفكرة
وما أشد ما تجتهد باقناع الوالد بها ولكن الوالد مغضب سئ الظن
لا يطمئن الى هذا الرأي الا كارهها وعلى ان يذهب صديقان
أحدهما صيدلى والآخر قسيس ليعلموا علم الفتاة . فيذهبان ويرافقهما
الفتى وقد رأيا الفتاة فأعجبتهما ورضياها للفتى زوجاً وعادا بهذا النبا
الى الاسرة وتخلف الشاب ليعلمن جبه الى الفتاة . ولكنه لم يحرق على
ذلك لأن الفتاة قد ملأت نفسه هية وروعة ولأنه رأى في أصعبها

خاتم الخطبة ولكنه مع ذلك يعرض عليها الخدمة في بيته فتقبل ولعلها
أحسّت حب الفتى ولعلها طمعت فيما هو خير من الخدمة ويعودان
مشيا الى البيت وقد انقضى النهار وأقبل المساء ثم تبعته العاصفة .
ولا يكاد الفتى يدخل مع صاحبه على أبيه وأمه وصديقه حتى يزداد
الأمر تعقيداً . الفتى لم يثنى صاحبه بحبه وإنما عرض عليها الخدمة
وأبوه لا يعلم إلا ان هذه الفتاة ستكون زوجاً لابنه فهو يسألها أأعجبك
الفتى ! فيسوء ظن الفتاة بهذا السؤال ويكون حوار مؤلم تعزم معه الفتاة
على أن تعود أدر اجها ولكن كل شيء ينجلي ويعلن الحب وتكون الخطبة .
هذا تلخيص أقل ما يوصف به انه سخي لا يدل على شيء مما
في القصة من جمال وبراعة ولكني قد قدمت هذا السخيف لتستكشف
أنت كيف يستطيع شاعر نابغة كجوته ان يخرج من قصة يسيرة
ك هذه آية فنية كهذا الكتاب الذي أضعه بين يديك . ستجد هذه البراعة
في تصوير أشخاص القصة بمألهم من حياة وشعور وذكاء وخلق . مما
تجد عند الامان ومن صفات أخرى تجدها في الناس جميعا . بما تجرى به
ألسنتهم من حديث ساذج ولكنه خصب كأخصب ما يكون الحديث .
فيه تصوير لحياة الطبقات الوسطى في المدن وفيه تجلية لهذه الحكمة
الرائعة التي تسيطر على حياة الناس مهما تختلف الأجيال والأزمان .
نعم وستجد هذه البراعة في هذا التصوير الخفيف الأخاذ للطبيعة
الحية في المدينة ومن حولها في غير تكلف ولا بحث ظاهر ولا استقصاء

للالفاظ الخالابة . نعم وستجد هذه البراعة بنوع خاص ان كنت قد قرأت الالياذة والاولدسياحين تحس التشابه بين هذين النوعين من الشعر في الوزن ولا فليس هذا بالشئ الذى يعنيننا وفي الأسلوب والسداجة بعد ذلك ، وهو الشئ الذى يجب أن نقف عنده ونلتفت اليه .

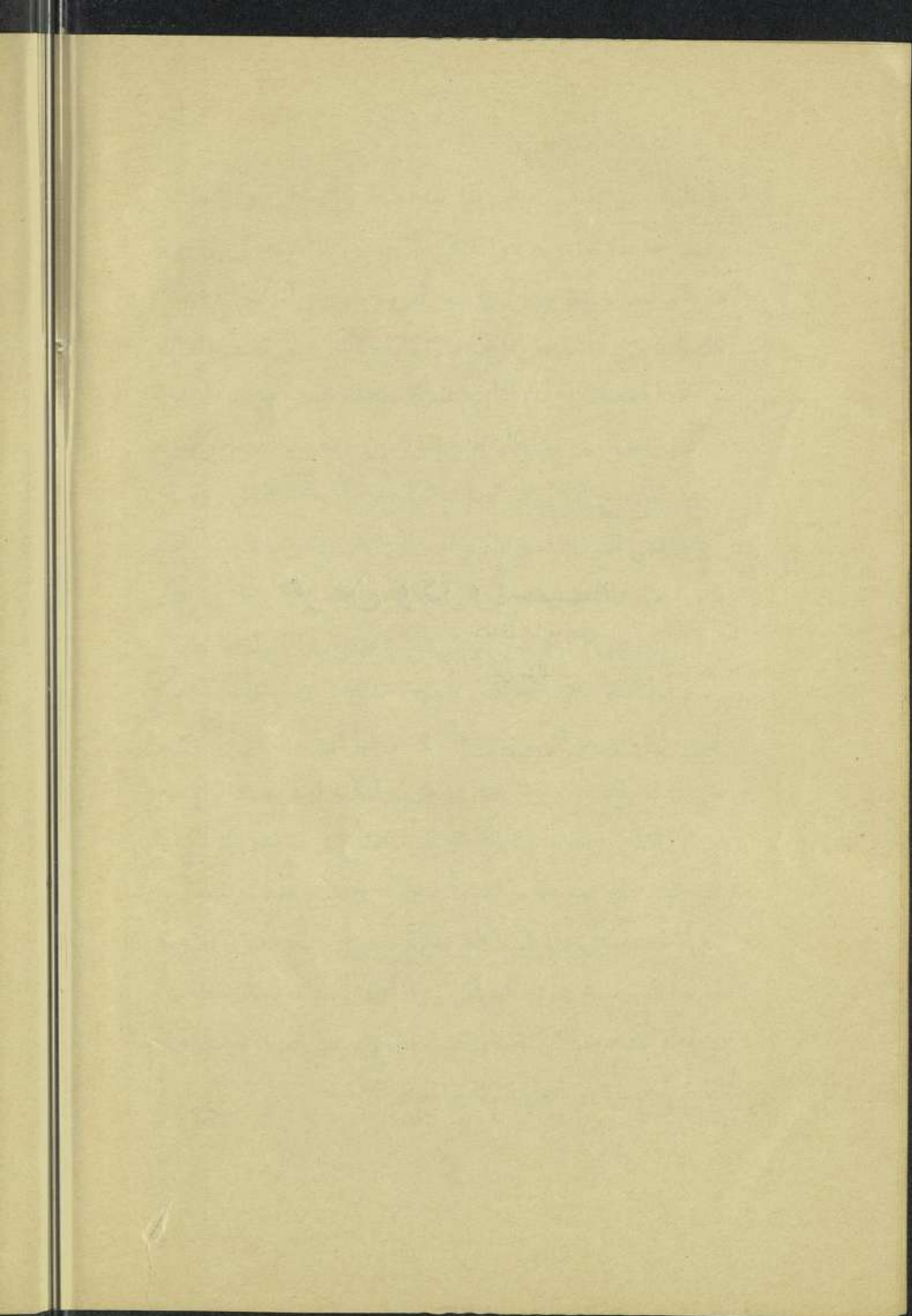
أبطال جوته كأبطال هوميروس فيهم سداجة حلوة وفيهم دعة كلها عذوبة وفيهم على ذلك شدة فيما لا بد من الشدة فيه . يتحدث بعضهم الى بعض فيمزجون أغراض الحياة اليومية بهذه الحكمة الشعبية الخالدة ؛ ويصورون لك أنفسهم في هذا الحديث . وهم اذا تحدثوا أحياوا من حولك كل شئ وأجروا الحركة في كل شئ . وأشركوك معهم ومع الأشياء في هذه الحركة وفي هذه الحياة . وهم لا يحبون ما نألفه نحن من الایجاز في الحديث والأعراض عما لا حاجة اليه ولكنهم يلبون بكل شئ ويفصلون كل شئ . ويكشفون لك عن أشياء قيمة في هذا التفصيل الذى كنت ترى أن لا حاجة اليه . وفق جوته من غير شك كل التوفيق . لأقول في محاكاة هوميروس وأصحابه ، بل أقول في الملاءمة بين فن هوميروس وأصحابه ، وبين الحياة الحديثة آخر القرن الثامن عشر .

أما في ألمانيا فقد فاز جوته بأعجاب عظيم حين أذاع هذه القصة . فتن بها الشعب ، ورضى عنها أكثر النقاد ، وتنكر لها بعض الحاسدين . ولكنها لم تبلغ ثلاث سنين حتى تجاوزت ألمانيا واللغة

الألمانية ، وإذا هي تترجم الى الفرنسية والانجليزية والاطالية .
 وتمضى بعد ذلك أعوام ، وإذا هي تترجم الى اللاتينية . ويرى جوته
 هذه التراجم وينظر فيها ويرى هذا الفوز ويقول في آخر حياته أن هذه
 القصة قد بعثت في نفسه من الرضى ما لم تبعثه قصة أخرى من قصصه المختلفة .
 فإذا انتصف القرن التاسع عشر كانت هذه القصة موضوع رسالة
 للدكتوراه في السوربون فإذا تقدم هذا القرن كانت هذه القصة موضوع
 البحث الواسع العميق في البيئات العلمية والأدبية المختلفة في أوروبا .
 وينتهى القرن التاسع عشر ويتقدم القرن الذي نحن فيه ويحتفل العالم
 بمرور مائة عام على وفاة جوته ونفكر نحن في هذا الاحتفال ثم يحال
 بيننا وبينه فنتفق أنا وصديقى عوض على أن تحتفل بهذا العيد كما نستطيع .
 وأى أسلوب في الاحتفال بجوته أحسن من أن يترجم عوض هذه
 الآية من آياته ومن أن أنوب عنه أنا في تقديمها الى القراء . وقد اشترط
 على ألا ذكره بخير وأنا عند شرطه . ولكنه لن يستطيع أن يمنعني
 من أن أعلن راضياً مبتهجاً أنه قد استطاع في ترجمته العربية أن
 ينقل إلينا نقلاً صحيحاً ما قصد إليه جوته في قصته هذه من السداجة
 العذبة الخصبه معاً . وإذا فلغتنا العربية قادرة على أن تسع الفنون الأدبية
 لجوته إذا وجد مترجمون كعوض . وإذا فقد أستطيع بعد أن نبت عن
 عوض في تقديم هذا الكتاب الى القراء أن أنوب عن القراء فأهدي الى
 صديقى وصديقهم أجمل التهنية وأصدق الشكر .

طه حسين

هرمن و دروتیه



قصيدة (إيليجيا) ^(١)

....

إذن لقد كان جرماً أن أثار پروبرتوس ^(٢)
في نفسي حماساً؛ وأن قد اتخذت مارسيال —

(١) لهذه القصيدة تاريخ لابد من ذكره : ذلك أن جوته وشيلر كانا يكتبان قطعاً شعرية قصيرة اسمها إكسنيا Xenie ينتقدان بها معاصريهم ويسخران منهم . وقد رد هؤلاء النقد بمثله ، وطعنوا في كثير من مؤلفات جوته . وهذه القصيدة (وهي من نوع خاص اسمه الإيليجيا ، يرد جوته على الذين انتقدوه ولاموه على تشبهه بكتاب اليونان واللاتين . ولم تكن لهذه القصيدة أولاً علاقة بكتاب هرمن ودروته ، لولا أنه في آخرها يعلن للناس كتابه الجديد ، والمتحى الذي يريد أن ينحوه فيه : أن يقص قصة ألمانية عصرية على نمط قديم : على طراز شعر هوميروس . ولم تلحق هذه القصيدة بكتاب هرمن ودروته إلا في سنة ١٨٢١ أى بعد ظهور الكتاب بنحو ٢٥ سنة . والمتكلم في هذه القصيدة هو بالطبع جوته نفسه .

(٢) پروبرتوس Propertius أكبر شعراء اللاتين الذين نظموا القصائد التي من نوع إيليجيا . Elegia وليس معناها هنا مرثية . بل نوع من الشعر من وزن وشكل خاص . وقد اقتدى جوته بهذا الشاعر في كتابة القصائد الرومانية . التي ألفها بعد عودته من روما — أما مارسيال Martial فهو من أشهر شعراء اللاتين في النوع المسمى إيجرام Epigram أى حكمة أو مثل . وتفيد أحياناً معنى مقطوعة

ذلك الوقح الجرى. — رفيقاً وصديقاً ...
 أجل كان جرماً أن صاحبت القدماء
 ولم أنبذهم في مدرستهم ، ورأى ظهيرياً .
 وأن قد رافقوني — في الحياة —
 إلى لا تيوم راغبين طائعين (١) ...

أمن الجرم أنى جشمت النفس كل عناء
 في استطلاع ما بالطبيعة وما بالفنون من حسن وإبداع؟
 وأن لست ممن تخدعهم الأسماء أو تقيدهم الأوضاع؟
 وهل أجزمت إذ صممت لدوافع الحياة الملحة ،
 فلم تبدل من طبعي ولا من شيمى :
 واذ همكت برقع الرياء الشائن باحتقار وازدراء؟

o o o

فياربة الفن (٢) ! ان هذه الصفات

شعرية من غير نظر الى الموضوع . وقد اتخذ جوته مثالا في كتابه حكم البندقيه
 Venetianische Epigramme . وقد هوجم جوته من أجل هاتين المنظومتين
 والى هذا يشير هنا .

(١) اشارة الى رحلته الى ايطاليا ، حيث كانت كتب القدماء مرشده الأول .

(٢) يخاطب إلهة الفن « Muse » على طريقة الشعراء في الشعر الحماسي .

هي غرسك الذي غرسه في نفسي بجد ونشاط .

قد جعلها الغوغاء وصمات وهنات ،

لأنهم يحسبونني كأحدهم .

بل إن الأختيار أنفسهم — على ما بهم من صفاء ووفاء —

يريدون مني أن أسلك غير سبتي .

لكنني ، أيتها الربة ! لن أأتمر إلا بأمرك .

فأنت وحدك التي مازلت تبعثين في صدري

قوة الشباب ، اذا ما أخلق جلبابه .

وقد عاهدتني على هذا مدى الحياة . . .

فيا أيتها الربة ! لتشملي اليوم عنايتك المقدسة

أضعافاً مضاعفة . فقد أصبح الرأس

وما تزيينه الذوائب الجميلة كما عهدناه من قبل .

فما أحوجه اليوم إلى إكليل

يخدع به الناس ويخدع به نفسه !

وقديماً كان قيصر (١) نفسه

يلبس الاكليل مكرها لامختاراً .

(١) قيصر : هو يوليوس قيصر ، وقد سمح له بلبس الاكليل دائماً ليعني به صلعه .

فإن كان لى عندك ، أيتها الربة !
 غُصْنٌ من الغار ، فذريه اليوم على شجرتة .
 يزدد خُصْرَةً ونَضْرَةً ،
 عسى أن يحين يومٌ فأصير به جديرا .
 عمّا قليل يأتى المشيب ،
 فينثر زنبقه الفضى خلال الذوائب السوداء .
 فلا تبخلى على الآن باكليل من الورد الجنى ،
 يتوج سعادتى المنزلية (١) .
 وإنى لسعيد إذ أرى الزوجة تشعل النار
 فى موقد نظيف ، من أجل طهى الطعام .
 واذا أرى الصبي يلقي بالأغصان فيها ،
 وهو يلهو ويلعب ...



(١) هنا يتكلم جوته بصراحة عن سعادته العائلية . وكان هذا عقب اتصاله
 بكريستيانا فوليبوس وقد ولدت له ابنة أغسطس وهو المذكور بعد . ويدعوها جوته
 فى البيت التالى زوجه . ومن الكتاب من يرى أن كتاب هرمن ودروتيه عبارة
 عن تشيد جليل فى وصف السعادة المنزلية والحياة الزوجية . وفى هذه السطور يقول
 جوته — متواضعا — انه لم يبلغ فى الشعر بعد منزلة يستحق فيها إكليل الغار ،
 ولكنه بلغ فى سعادته المنزلية درجة عليا يستحق فيها إكليلا من الورد .

فاملئى ايتها الربة أقداحنا بالمدام !
 ويا أصدقائى الذين يعشقون السمّر ،
 والذين هم على شاكلتى ومذهبى !
 أهلاً بكم إن لكم عندى أيضاً أكاليل !
 فتعالوا نشرب أولاً نخب ذلك الرجل الجرى ،
 الذى خلصنا أخيراً من هوميروس (١) :
 خلصنا من ذلك الاسم العظيم الهائل ،
 لكى يسلك بنا طريقاً أجلاً وأعظم .
 ومن ذا الذى يجزؤ على التطلع لمرتبة الآلهة ؟
 بل إلى مرتبة إله واحد ؟
 بيد أنى ، رغم هذا ، أرى حسناً — وإن جئت أخيراً —
 أن أكون أحد أولئك الهومريين ..
 فيما أخلاى ! أنصتوا إلى هذا القريض الجديد :

(١) يشير إلى الكاتب الألمانى ولف Wolf وهو من معاصرى جوته وكان
 بينهما معرفة ومودة . وهو أول من قال بأن القصائد المنسوبة الى هوميروس (الالبادة
 والاوذيسية) ليست من تأليف رجل واحد ، بل من وضع كثيرين أطلق عليهم اسم
 الهومريين (Homeriden) . وهم الذين يشير اليهم جوته هنا باسم الهة ، ويود
 لو أنصح له أن يقلدهم .

وأتربعوا الأقداح بالراح :
 لعلَّ في الصهباءِ والحبِّ والصَّداقةِ
 ما يحملكم على التسامح والاغضاء ..
 إني سأسوق أمامكم صوراً لحياة الألمان أنفسهم
 في دار تجمع بين البساطة والهدوء .
 حيث الإنسان يتعلم من الطبيعة
 كيف يغدو إنساناً كاملاً .
 وليكن رفيقنا اليومَ روحُ ذلك الشاعر ،
 الذي سحرنا بيبانه ، إذ يقصُّ علينا قصة (لويزا)
 وكيف عقد لها بسرعة على الفتى الجدير بها (١)
 وكذلك سأسوق أمام أعينكم
 صوراً أليمةً لذلِّكم العهد الحزين (٢) .
 وأريكم كيف يخرج الجنس الباسل الطاهر
 وقد عقد له أخيراً لواء النصر ..
 ولئن وفقت لاستدرار الدمع من مآقيكم :

(١) قصة لويزا للشاعر الألماني Voss تشبه إلى حد ما قصة هرمن ودروتيه .
 ومنها اقتبس جوته موضوع هذا الكتاب .
 (٢) أى عهد الثورة الفرنسية .

ولئن أخذتكم نشوة الطرب لما أنشده الآن
فتعالوا عانقوني عناق المودة الخالصة .
وأسندوا صدري إلى صدوركم .
إن حديثنا اليوم حديثٌ عقل وحكمة ؛
فلقد ألقى علينا هذا القرن (١) في نهايته
دروس الحكمة الغالية ،

بما أجهدنا به القضاء ، وابتلانا به القدر .
إن في قلبكم من السرور والطرب
ما يعلمكم القناعة والرضى بالقليل .
فلننظر ، إذن ، الى تلکم الأيام الماضية :
نظرة طمأنينة وارتياح .

ولئن عشنا كثيراً بمعرفة الرجال والشعوب
فلنتعلم ، أيضاً ، ما انطوت عليه الجوانح .
وما استقرَّ في أعماق النفوس .
يكنُّ لنا في هذا من السرور أوفى نصيب .

(١) أي القرن الثامن عشر . وفي نهايته كتب هذا الكتاب . والدروس المشار
إليها هي الثورة الفرنسية في كل أطوارها .

النشيد الاول

كاليويا^(١) KALLIOPE

(الهة الشعر الحماسي)

....

صروف القضاء وعطف القلوب

« لعمري ما رأيت هذا الميدان ولا هذه الطرق خلاً قفراً
كما أراها اليوم . وكأني بها قد كُنِست كنساً ، أو بسط عليها
الموت جناحيه . فلا أكاد أبصر من أهل المدينة جميعاً
خمسين رجلاً .

(١) الكتاب مكون من تسعة أناشيد ، وكل نشيد عنوانه اسم من أسماء آلهات
الفتون Muse كما فعل هردروت : كأنما المتكلم في كل نشيد هو الموسا نفسها .
والهة النشيد الاول هي إلهة الشعر الحماسي : أو شعر الملاحم Epos . لأن الكتاب
هو من هذا الطراز . ولكل نشيد عنوان ثان يدل على موضوعه وهو هنا صروف
القضاء وعطف القلوب . لأن القضاء نزل بكثير من الهاريين اللاجئين في عهد
الثورة الفرنسية . فهاجروا الى نهر الرين فعطفت عليهم قلوب الناس كما سنرى في النشيد .

« إن حب الاستطلاع لذو سلطان على النفوس ! فلقد
هُرِعَ الناس وتدافعوا من كل صَوْب ، مسارعين الى رؤية
ذلك القطار الحزين من اللاجئين التعماء .

« إن بيننا وبين ذلك الجسر الذى سيسلكونه سير ساعة
من الزمان ، ولا بد بعد ذلك من الانحدار والمشي وسط الغبار
وفى حرّ الظهيرة ... ولن ترانى مُخَلِّياً مكانى ، من أجل
رؤية ذلك الشقاء ، الذى ترزح تحت عبئه تلك الجماعات
المهاربة؛ وليس بيدها سوى القليل مما استطاعت إنقاذه حين
أكرهت على ترك أوطانها الجميلة وراء الرين والالتجاء الى
ديارنا (١) ، حيث يطوفون بأرجاء هذا الوادى الخصب ،
وبين منعطفات نهرنا الفياض .

« ولعمري لقد أحسنت صنعاً أيتها الزوجة ، إذ هزّتك
الأريحية ، فبعثت ابننا لكى يحمل الى هؤلاء البائسين بعض

(١) هذه الجماهير جاءت من الناحية الغربية لنهر الرين : أى من البلاد الألمانية
المتاخمة لحدود فرنسا مثل الألزاس ... وهؤلاء الألمان حين أرادوا الفرار مما سيده
لهم الاحتلال الفرنسى من الشقاء اضطروا لأن يمتازوا نهر الرين الى الناحية الشرقية
(الناحية اليمنى) حيث المدينة الصغيرة التى تدور فيها حوادث هذا الكتاب .

الملابس القديمة وشيئاً من الطعام والشراب . فان العطاء
فرض على ذوى اليسار .

« وإنى لشديد الإعجاب بفتانا إذ أراه يسوق المركبة
بمهارة فائقة ، وقد أخضع الجياد ، يسيرها كيفما شاء .
وتعجبني مركبتنا الجديدة ، فهي حقيقة على شئ كثير من
الحسن . ومن السهل أن يجلس بها أربعة أشخاص دون مشقة
أو عناء ، عدا السائق الذى يجلس على مقعده الخاص .
وهو اليوم يسوقها منفرداً لم يصاحبه أحد . . أرايت
كيف دار بها حول ناصية الطريق بسهولة تامة ؟ »

هكذا كان صاحب فندق « الأسد الذهبى » يتحدث
الى زوجه وهو جالس فى مدخل داره مستريحاً مطمئناً .
فقالت زوجه ، وقد أوتيت شيئاً كثيراً من العقل
والذكاء : « إنى أيها الوالد (١) لست بالتى تهبُ ما عندها
من قديم الثياب والألحقة عن طيب خاطر ؛ فانها أشياء تقي

(١) عبارة مألوقة عند الاوربيين فى خطاب المرأة لزوجها متى أصبح والداً .
وكذلك الاب ينادى زوجه يا أم !

بشتى الأغراض والحاجات . وليس من السهل شراؤها بالمال
حين نعدو في حاجة إليها . لكننى اليوم لم أتردد فى بذل
مقتنيات حسنة من الألبسة والأغطية . فلقد سمعت أن
فيهم أطفالاً صغاراً وشيوخاً فانيين يمشون عراة أو شبه عراة .
« فهل أنت صافح عنى إذ لم أحجم عن الاغارة حتى على خزانة
ثيابك أنت . وما أخذته منها جبة نومك (١) ذات الإزهار البديعة
المطرزة بالحرير الهندى على قماش من القطن الثمين ، ومبطنة
بأحسن الصوف وأغلاه . ولم أتردد فى بذلها لهؤلاء البائسين .
لأنها كما تعلم قد غدت قديمة مهلهلة ومن طراز عتيق . »

فتبسم صاحب الفندق ، وقال : « إني ليسوءنى فقد هذه
الجبة القطنية القديمة . فانها بضاعة شرقية أصيلة ، ولا يتسنى
وجود مثلها اليوم . على أنى الآن لم أعد أرتديها . فقد أصبحنا
فى زمان يُراد منا فيه أن نلبس دائماً العباءة والكساء البولونى
وأن نحتذى النعال الطويلة دون القصيرة . وحرّم علينا حتى
لبس القلائس الخفيفة . »

فقالت زوجته : « ها قد عاد أدراجه بعض أولئك الذين

(٢) ترجمة لكلمة Schlafrock وهى المعروفة بالروب دى شامير .

ذهبوا الرؤية الوافدين . فلعل المشهد قد انتهى . أنظر إلى أحدىتهم ، كيف تراكم عليها التراب . وإلى وجوههم كيف تلهب لما عانوه في هذا الحر الشديد . وهاهم أولاء يتناول كل منهم منديله . ليسمح به عرقه المتصبب ، ولو أنى مكانهم لما أنهمكت قواى ، بعد ذلك المشهد ، بكل هذا العدو والاسراع . ولعمري إنهم سيشجعونا اليوم قصصا وأحاديث . »

فسكت الوالد ملياً . ثم قال فى شيء من التأنى والتأكيد : « إنا بعيدو العهد بمثل هذا الهواء الصحو الجميل فى زمن الحصاد . وغدا لا بد لنا أن نشرع فى جنى الثمار ، كما حصدنا البرسيم من قبل دون أن تفسده الأمطار . . ما أشد صفاء السماء ! ، إن العين لا ترى سحابة واحدة تشوبه . وتهب علينا من الشرق صبا علية باردة تنعش الروح .

أن هذا الهواء من الطراز الثابت الذى لا يتغير بسرعة (١) . وهاك القمح قد نضجت سنابله وأمعنت فى النضوج . فغداً نبدأ حصاد هذه الغلة الوافية الوافرة . »

فى أثناء كلامه هذا كانت جماهير الرجال والنساء تتزايد .

(١) ان صاحب الفندق كثير التناول لان الطقس يتغير فعلا قبل انتهاء اليوم .

وكلهم يحترق الميدان قاصدا إلى داره . وكان يُرى في جملة
العائدين جارهـم التاجر الغنى . أكبر تجار البسلة وأعظمهم
شأنا . وقد دخل الميدان من الناحية الأخرى ومعه بناته
في مركبة مفتوحة من الطراز الذى يصنع فى مدينة لاندو .
وهكذا عادت إلى الطرقات الحياة واشتدت بها الحركة .
لأن المدينة ، على صغرها ، كثيرة الأهل والسكان . وبها كثير
من الصناعات والحرف الناجحة .

كان الزوج والزوجة جالسين فى مدخل الفندق ، ينظران
إلى هذه الجموع ، يـموج بعضها فى بعض ، ويتسلان بما يشاهدان
أمامهما ، ويتبادلان العبارات والإشارات . إلى أن قالت الزوجة
الكريمة : « أنظر ! ها هو ذا القس قد عاد وهو مُيمَّم شطرنّا .
وهذا جارنا الصيدلى قد رجع أيضا . وسيقضان علينا من غير
شك كل ما رأياه هناك ، بما لا تُسر لمرآه العيون . »

وحقا وصل الصديقان إلى الفندق ، وحيّا الزوجين أحسن
التحية . ثم جلسا على دكتين من الخشب فى الدّهلـيز . وبعد
أن نفضا الغبار عن أقدامهما ، وترَوّح كل منهما بمنديله ،
وتبادل الجميع عبارات التحية والسلام ، أخذ الصيدلى يتكلم

في شيء من الغيظ والكمد فقال : « إني لأعجب كل العجب
لهؤلاء الناس — وهم في هذا جميعا سواء — إذ يحلو لهم أن
يقفوا ويَحْمَلُوا ما يصيب جارهم من مكروه، ولما ينزل به
من خطب . فتراهم يسارعون ويتدافعون، لكي ينظروا النيران
تندلع لهيبها وتحتاج ما حولها . . ويبادرون إلى رؤية المجرم
المسكين حين يساق إلى الموت . واليوم نراهم جميعا قد
انطلقوا ليشاهدوا ما حل بأولئك الطريدين من شقاء
وما يعانون من آلام . وقلبا يفكر أحدهم أن قد يحل به ما ألم
بأولئك النساء، إن عاجلا أو آجلا . اللهم إني أجد في هذا
خِفة لا تغتفر، وإن كانت مغروسة في طباع البشر . »

فتكلم القسيس وكان رجلا ذكي العقل، كريم النفس،
زينة أهل المدينة جميعا؛ وهو بعد أدنى إلى الشباب وإن
كملت رجولته . وكان أدري من صاحبه بالحياة، وأعرف
بما يريد السامعان من الأنباء . ناهيك أنه رجل قد طالع
الكتب المقدسة وتعمق في درسها؛ وامتلاء صدره بما حوته
من الآيات الغالية، التي تكشف عما تكنه الصدور من الأسرار،
وما تضره المقادير لبني الانسان . وكذلك كان ملها بأحسن

ما في الكتب الدنيوية .

وتكلم القسيس فقال : « لست أود أن ألوم بني الانسان
من أجل أعمال ضررها يسير ، تملئها الغريزة ، ويدفعهم إليها
الطبع . فان غرائز الناس ، التي تقودهم على رغبتهم ، وتتحكم
في أهوائهم فتسيرهم كما تشاء ، تلك الغرائز كثيرا ما تصيب
النجاح والتوفيق حيث يفشل العقل والتدبير ، وتقتصر الحكمة
والذكاء . . قل لي بربك إذا كان شغف الانسان بالاستطلاع
لا يجذبه بتلك القوة الساحرة ، فأني له أن يدرك ما بالكون
من حسن النظام وجمال التنسيق ؟ فالانسان في مبتدأ أمره
شغفٌ بالبحث عن كل جديد . بعد هذا يسعى وراء النافع
المفيد ، وأخيرا تلقاه يطلب الخير وينشد الصالح من الأمور .
لكي يرتفع بهذا شأنه ويعلو به ذكره . فهو في شبابه ترافقه
الخفة والرعونة وتلازمانه أينما سار . وتخفيان عن عينه
الآخطار التي قد تعترض طريقه . وإذا حلت به كارثة أو نزلت به
ملمة فسرعان ما تمحوان آثارها وتزيلان آلامها . ولنعم
الرجل الذي يستطيع أن يولد من رعونة الشباب هذه عقلا
رصينا يجد ويدأب في السراء والضراء على حسد سواء . فيفعل

الخير ويُعلَى من شأنه . ويصلح الفاسد ويزيل الشرور .
وكانت السيدة الفاضلة قد عيل صبرها فقالت تخاطب
الرجلين : « لكن ألا تحدثنا بما رأيتم اليوم ؟ فيودى لو أحطت
بهذا علما . »

فتكلم الصيدلى جارهم فى جدٍّ وهدوءٍ ، فقال : « هيات أن
يعود الى قلبى السرور بكل هذه السرعة بعد الذى شاهدته
اليوم . ومن ذا الذى يستطيع أن يصف لكم ذلك الشقاء ذا
الأشكال والألوان . . لقد لاح لنا من بعيد مثار النقع ،
ونحن لم نتحدر بعد الى السهوب . وكانت جموع الطيريين
قد أخذت تصعد ثم تنحدر من كثيب الى كثيب . فلم يكن
من المستطاع أن تبين الأعين من أمرهم شيئاً . ولما بلغنا
الطريق التى تعترض الوادى وتصل بين جانبيه ، رأينا الناس
ما بين راكب وراجل ، يتزاحمون ويتساقعون . وأبصرنا
أيضاً — وبالألأسف — بعض أولئك التعساء ، وقد أخذوا
يمرون بنا ، فاستطعنا أن نقرأ فى وجوههم ما يعانى به الطريد
الشريد من مرارة وألم ، وما يحسه ، رغم هذا ، من سرور
وفرح ، إذ تسنى له أن ينقذ حياته من بين مخالب المنون .

أجل لقد كان من المؤلم حقا رؤية تلك الأمتعة العديدة من كل نافع مفيد ، مما نراه عادة في كل منزل عسني أصحابه بأعداده وتنسيقه . فيجعلون لكل متاع مكانه الخاص به ، تتناوله الأيدي بسهولة كلما دعت إليه حاجة ثم ترده الى مكانه
والآن كنا نرى كل تلك الأمتعة . وقد اختلطت وامتزج بعضها ببعض ، بعد أن انتزعت من مواضعها انتزاعا . وحملت على عجل فوق مطايا وركائب من كل نوع ومن كل طراز . فكنت ترى الغربال وأغطية الصوف ملقاة فوق خزانة الثياب . والفراش الوثير وسط وعاء العجين ، وغطاء المائدة ملقى على المرأة . . . ولقد مارسوا من غير شك ذلك الفرع الذي قاسينا شره نحن منذ عشرين عاما في أثناء الحريق الهائل . إذ طاشت بنا الأحلام ، فأخذ الناس يجمعون الغث من الأشياء ويتركون الثمين من خلفهم ، وكذلك شاهدت اليوم أولئك المشردين وقد احتقبوا من تافه الأمتعة وحقيرها ، ما أضنوا به مطاياهم ودوابهم : فمن فرش بالية ، إلى براميل قديمة . الى بيت للطيور أو قفص للعصافير . كل هذا وأمثاله قد جمعه واحترموه بدقة وعناية ، لكن من غير عقل

ولا تدبر. ولكم رأينا اليوم من طفل صغير أو امرأة ضعيفة،
تلثت إعياء ونصبا، وهي تنوء بما تحمله أو تجره من جِوالق
أو سقط أو باطية، كلهما مملوء مفعم بأمتعة ليس فيها نفع
ولا غناء.. فما أشد حرص الانسان حتى على الحقير التافه
فما ملكت يمينه!

وهكذا كانت جماهير الطريدين تسير في طريقها، وقد ثار
من فوقها الغبار، وهي تمشي على غير هدى، وتتدافع من غير
نظام: هذا تعبت دوابه ويريد أن يسير الهويني؛ وذلك
عجل يريد أن يسرع في خطاه. وهنا تسمع صياح نساء وأطفال
قد آدهن الزحام. وهناك تسمع خوار الدواب وعواء الكلاب؛
وهناك تسمع عويل الشيوخ والمرضى، وقد أجلس كل منهم
على ظهر مركبة قد حملت أقصى ما تستطيع أن تحمله، فهي
تهزه هزا عنيفا.

ويا ليت هذا كل ما يكابدون. فإن الزحام الشديد كثيرا
ما يميل بالعجلات عن الطريق ويدفع بها إلى حافة الجسر.
فتهوى المركبة الى الخندق، ثم تنقلب بما تحمله من متاع ومن
ناس، ولحسن الحظ قد سقط الناس بعيدا وسط الحقول،

وأما الصناديق الثقيلة فهوت الى جانب المركبة . ولقد خيل
الى من شاهد هؤلاء الناس عند سقوطهم أن سيراهم وقد حطمتهم
تلك الصناديق والخزائن . بل سحقتهم سحقاً . على كل حال
لقد تحطمت المركبة ؛ وبقي أصحابها حيارى ما لهم من معين .
فقد تركهم الآخرون وانطلقوا في سبيلهم ، يدفعهم التيار
دفعاً ، فلا يعينهم سوى أمر أنفسهم . وقد أسر عنا نحو هؤلاء
المرضى والأشيوخ الهرمين الذين برح بهم السقام ، بحيث
لو كانوا في ديارهم وعلى فراشهم لكفاهم ما يعانون من ألم
ووصب . فكيف بهم الآن وكلهم طريق الثرى مضعضع
الجسم ، يئن ويتأوه . وقد أحرق حر الشمس مجاه ، وخنقه
الغبار المتطاير .

فقال صاحب البيت ، وقد أثار الحديث في قلبه عاطفة
الرحمة : « ليت ولدى هرمن يلقاهم ، فينعشهم ويكسوهم .
أما أنا فما أحسبني أرغب في رؤيتهم ، لأن منظر الشقاء يؤلمني ،
ولقد تأثرتنا حينما سمعنا الأنباء الأولى عما يعانیه أولئك
البائسون ، فبادرنا مسرعين بارسال شيء مما فضل عن حاجتنا ،
مساعدة للقليل منهم ، وهكذا استراح ضميرنا نوعاً ما .

والآن فلنترك ذكر تلك المشاهد الأليمة ، فانها سرعان
ما تبعث الرعب في القلوب ، فتملؤها بهموم وأشجان هي شرٌّ
من الخطب الذي آثارها في النفس .

فهلّم بنا إلى الحجرة الخلفية الصغيرة ، ذات الهواء البارد
العليل ، فهي ليست معرضة لأشعة الشمس ، والهواء الحار
لا ينفذ إليها بفضل هذه الجدران السميكّة . وهناك فلتحضر
الأم العزيزة لكل منا كأساً من نبيذ العام الثالث والثمانين (١)
وبهذه الكأس فلتنفّض عنا غبار الهموم . أما هذا الدهليز
حيث نحن الآن . فلا يصلح للشراب ، إذ سرعان ما يحدق
الذباب بأقداح الراح .

فانطلقوا جميعاً الى تلك الحجرة فرحين بتلك الكأس
المنعشة . وهناك أحضرت لهم الأم النبيذ الأبيض الصافي
في قارورة مصقولة لامعة على صينية من الصفيح المجلوّ المضىء .
وقد صفت فوقها أقداح من الزجاج الأخضر : وهي أقداح

(١) أى الذى صنع من عنب سنة ١٧٨٣ . وكانت سنة اشتهرت بجودة عنبها
وجودة الجمر التى صنعت من ذلك العنب . ووادى الرين من أشهر أقاليم أوروبا
انتاجاً للخمر .

نبيذ الرين الحقيقية . وجلس الأصدقاء الثلاثة حول مائدة
مستديرة سمراء اللون ، قد أجيد صقلها ، ذات قوائم ضخمة
متينة .

ولم تكد الأقداح ثملاً حتى رفع صاحب الدار والقسيس
كأسيهما ، وتدافع الكأسان برفق . . بيد أن ثالثهم قبض على
كأسه مطرقاً مفكراً . ولم يرفعها عن المائدة . فأخذ صاحب
البيت يستحنه بعبارة رقيقة . وقال : « هلم أيها الجار العزيز
فاشرب معنا ! ألا ترى أن الله جل شأنه ، قد وقانا سوء برحمته
وكرمه إلى اليوم ، وإخاله سيرعانا في مستقبل أيامنا أيضاً .
ومن يستطيع أن ينكر أنه تعالى منذ ابتلانا بذلك الحريق
المفزع : فأنزل بنا ذلك العقاب الصارم ، لم يزل بعد ذلك يغمرنا
بالسعادة ويشملنا بالرعاية والعناية ، كما يعنى المرء ويحرص
على إنسان عينه وهو أعز الجوارح عليه . . بعد هذا كله
أيجرنا ، سبحانه ! هذه الحماية والمعونة ؟ على أن قوته تعالى
وسلطانه إنما يدوان للأعين حين تنزل الشدائد وتحقق
الآخطار . . أيمكن . أنه وهو الذي أقام صرح هذه
المدينة الزاهرة ، وشيدها بأيدي بنيها المجدين ، بعد أن كانت

رماداً أو أنقاضاً، ثم أسبغ عليها فضله وبركته، يعود اليوم فينزل
بها الدمار والخراب؛ ويقضى على كل تلك الجهود؟»

فقال القسيس بصوت هادئ رقيق وقد سره ما سمعه:
«تمسك بأهداب الايمان. واعتصم، ما استطعت. بهذه
الآراء؛ فممثلها تغدو في أوقات السعادة رزينا مطمئنا، وهي
في زمن الشقاء نعم السلوى والعزاء، ونعم الباعث للأمل
والرجاء!»

فأجاب رب البيت بعبارات تبدو فيها الرجولة والحكمة.
فقال: «لكم كنت أحيى نهر الرين وتياره المتدفق، كلما عدت
إليه بعد أسفارى ورحلاتى. ولكنى قلما خطر لى أن ضفافه
الجميلة ستصبح يوماً بمثابة السد المنيع، لندرأ به عنا الفرنسيين.
وأن سيغدو مجراه الفسيح خندقاً ليقينا ويدفع الشر عنا. فانظر
كيف تحفظنا الطبيعة. وكيف يحميننا الألمان البواسل، وكيف
يكفوننا الإله جل جلاله! فأى أحمق يجحد أو يكفر؟ إن
المحاربين قد سُموا القتال وأضتهم الحروب، وكل شيء يدل
على اقتراب الصلح والسلم. ومتى احتفل الناس بالصلح، الذى
يشبهه الجميع منذ زمن، فانى أرجو أن نحتفل به نحن أيضاً

في كنيستنا، فيمتزج صوت النواقيس بأنغام الأرغن، وقرأة صلوات الابتهاج بصوت البوق .

وبودی یا سیدی القسیس لو أن ولدی هرمن یُعقد له فی ذلك الیوم علی العروس . فیتقدم بها بین یدیک الی المذبح . فیکون ذلك العید السعید، الذی تحتفل به البلاد جمیعاً، عیداً لسعادتنا المنزلیة فی مستقبل الأيام .

وإنی لیَحْزُنُنِی أن أرى هذا الشاب - علی جده ونشاطه فی أعماله - ساکناً رزیناً، کثیر الخجل والحیاء، زاهداً فی رؤیة الناس والتحدث إلیهم . راغباً حتی عن صحبة الغید، وعن الرقص وهو قبله أنظار الشباب .

کان الوالد یتکلم علی هذا النحو، ثم أمسک عن الکلام فجأة . وأخذ یصغی : فاذا صوت سنابک الخیل یقترب ویزداد جلاءً ووضوحاً . والضوضاء آخذة فی التزاید تدریجاً؛ ثم سُمِعَت عجلات مرکبة مسرعة تجری بصوت کأنه قصف الرعود . ووقفت فجأة لدى باب الدار .

....

النشيد الثاني

تربسيكورا^(١) TERPSICHORE

(الهة الرقص)

هرمن

دخل الابن الى الحجرة ، فاذا هو قى حسن الصورة طويل
القامة . . تلقاه القسيس بنظرات حادة نافذة ، متأملا قوامه
وناقدا حركاته بعين الباحث الحبير ، الذى تخترق فراسته
الحجب ، ويستنبط الأسرار من غير عناء . وقال له بلهجة
المخلص الأمين : « إنك لتعود إلينا إنسانا غير الذى عهدناه

(١) الموسا التى تشيد هذا النشيد هى إلهة فن الرقص . وفى الحق أن لا مناسبة
بينها وبين ما فى هذا الفصل . ولا يعرف لماذا اختارها جوت دون غيرها عند التكلم
عن هرمن وهو الذى ينقر من الرقص . على كل حال ما دامت هنالك تسعة أناشيد
فى الكتاب وفى الخرافات تسع ربوات للفن . فلا بد أن تتولى كل واحدة الاشراف على
أحد هذه الاناشيد . ولا بد فى بعض الاحيان ألا يكون هنالك تطابق بين ما هو معروف
عن ربة الفن فى العرف وبين ما هو منسوب لها هنا .

وعرفناه . وما أحسبني رأيتك يوما ووجهك ممتلئ بشرا
وسرورا ، وفي ناظريك هذا البريق الذي أبصره الساعة .
إنك تقبل علينا فرحا طروبا ، لأنك من غير شك قد قسمت
الهدايا بين أولئك البائسين ، فدعوا لك أطيب الدعوات .
فأجاب الفتى بألفاظ ، فيها جدٌّ وهدوء : « لست أدري
هل فعلت شيئا أحمد عليه . غير أني في كل ما عملت ، لم أفعل
غير الذي أملاه على قلبي . وهأنذا أقص عليكم القصص كله :
« إنك يا أماء قضيت زمنا غير قصير في جمع الأشياء
في اختيارها . فلم تنهيا الحقيقة إلا بعد لآي . وكذلك التبيذ
والجعة ، قد استغرق إعدادهما زمنا غير قليل . وحين انطلقت
أخيرا من المنزل ، وسرت في الطريق لقيت كثيرا من الناس
راجعين أدراجهم بنسائهم وأطفالهم ، لأن جماهير اللاجئين
كانوا قد ابتعدوا . فلما أدركت هذا الأمر ، ثبتت أعنة الخيل ،
ووجهتها بسرعة تلقاء القرية ، وقد أبلغت أنهم سيبيتون بها
ليلتهم .

« وبينما أنا أعدو بالمركبة في الطريق الجديد ، إذ أدعشني
منظر مركبة ، ذات قضبان متينة ، يجرها ثوران من أشد الثيرة

قوة وأضخمها جسما ، وإلى جانبهما فتاة تمشى بخطى ثابتة ،
وفي كفها عصا طويلة ، وهى تقود هاتين الدابتين ، على ما بهما
من بأس وقوة ، بحنكة وبمهارة : طورا تدفعهما للأمام ، وتارة
تردهما الى الوراء .

« وحينما أبصرتنى اقتربت من جوادى وقالت : «لم تكن
دائما حليفى الشقاء كما ترانا الآن فى طريقنا هذا . وما اعتدت
يوما أن أسأل الغريب عرفا أو ألتبس منه صدقة . والناس
قلما تهب عن رضى بل لكى تتخلص من لاجاجة السائل .
أما اليوم فتدفعنى الحاجة الى الكلام : هنا قد اضطجعت على
الخطب عقيمة رجل من ذوى اليسار . لم أستطع إلا بشق
النفس أن أنجو بها ، على هذه المركبة وبهذين الثورين وقد
جاءها المخاض . وبعد ذلك وضعت طفلها ، فلم نلحق بالآخرين
إلا بعد حين . باتت وليس بها من الحياة إلا الذمء ، وبين
ذراعيها طفلها الرضيع ، تحتضنه وهو عريان : وهيات أن
يستطيع أقاربنا أن يمدوا لنا اليوم يد المساعدة : ولئن كانوا
سبقونا الى تلك القرية ، حيث نبغى المبيت ليلتنا هذه ، فانى
أخشى أن يرتحلوا عنها قبل أن نصل اليها . فان كان لديك شئ »

من كَتَّانٍ ليست لك به حاجة وكنت من أهل هذا الحى
فلا تبخل به على البائسين .

« عند ما نطقت بهذه الكلمات ، رفعت النفساء وجهها
الشاحب من بين الحطب اليابس ، وجعلت تنظر إلى : فقلت
للفتاة : « إن الصالحين من بنى الانسان كثيراً ما توحى إليهم
روح سماوية ، فيحسون ما ألم باخوانهم من متربة وما نزل بهم
من ضيق : وكذلك أمى العزيزة كما ألهمت ما أتما فيه من
عناء ، فأعطتني هذه الحزمة ، وبها كل ما يسد حاجة ذلك الطفل
العارى » : ثم حلت عقدة الحبل وناولتها جبة الوالد ، وشيئاً
من الثياب والقماش ، فشكرت لى صيغى ، وقالت ووجهها
يفيض سروراً : « ألا إن السعداء لا يدركون أنه لم تزل فى العالم
معجزات تقع . أما فى وسط الشقاء فإن الانسان يحس يد الله
وبنائه القادرة ، حين تهدى الصالحين إلى صالح الأعمال .
ألا فليسبح عليك النعمة التى أسبغها علينا الآن بيدك ! » .

« ولقد رأيت النفساء وهى فرحة تلمس يديها الثياب
المختلفة ، كما تما سرها على الخصوص ملابس الصوف فى جبة
النوم . ثم قالت لها الفتاة : « لنسرع الآن الى تلك القرية ، حيث

تستريح الجماعة وتقضى ليلتها، ومتى بلغناها فساداً بادر بتساركَ
كل ما يحتاجه الطفل، وكل ما يلزمنا . ثم أقرأتى السلام،
وبالغت فى شكرى على صنيعى، ثم دفعت الثورين، فانطلقت
المركبة .

« أما أنا فترى ثقت قليلاً، وحبست الجوادين عن السير برهة،
فقد جعلت أحس فى قلبى نزاعاً، وجعلت أتساءل : أنطلق
إلى القرية مسرعاً، وهنالك أقسم ما معى من الزاد بين سائر
الناس، أم أكتفى بأن أعطيه كله لتلكم الفتاة، لتتولى توزيعه
بينهم، بما أوتيته من حكمة وعلم، ولم يطل ترددى بل تبعت
الفتاة على مهل، ولحقت بها بعد قليل، وقلت لها مصارحاً :
« أيتها الفتاة الصالحة ! ان الذى أعطتنيه الوالدة ليس قاصراً
على الثياب التى تستر الجسد العارى، بل أضافت إليها زادا
وشراباً كثيراً . وكذاً منه فى داخل المركبة شئ ليس بالقليل .
وقد صحت رغبتي فى أن أضع بين يديك هذه الهبات أيضاً،
ولعل هذه هى خير وسيلة للقيام بما عهد إلى . فأنت بلا شك
تتولين تقسيمها بعقل وتدير، أما أنا فيكون اعتمادى على محض
الصدقة » .

« فأجابت الفتاة قائلة : « سأتولى توزيع هباتك بأمانة .
وينجب أن ينعم بها من هم أشد احتياجاً إليها » . وعند ذلك
بادرت بفتح صندوق المركبة فأخرجت منه تلك القطع الكبرى
من لحم الخنزير ثم الخبز فقناني النيسد والجمعة . حتى لم يبق
لدى شيء . وما أشد شوقي لأن أعطيها أكثر مما أعطيت لولا
أن قد نقد ما في الصندوق .

« وقد وضعت الفتاة تلك الهدايا جميعاً عند أقدام المريضة ،
وربطتها رباطاً محكمًا ، ثم مضت في سبيلها ، أما أنا فسقت الجوادين ،
راجعا أدراجي إلى البلدة » .

وعند ما أتم هرو من حديثه ، أخذ الجار الثرثار يتكلم فقال :
« سعيد لعمرى في هذه الأيام : زمن التشرد والاضطراب ،
سعيد جداً من يعيش في داره فريداً وحيداً ، لا زوجة تفزع
إليه ولا ولد . ولهذا أرانى اليوم سعيداً . ولا أعدل بحالى
هذه شيئاً . إذ لست أدعى والداً ؛ وما لى من طفل أرعاه ،
أو زوج أعنى بأمرها .

ولقد كنت غَيْرَ مرةٍ أتوهم الهرب ، فأجمع الغالى

والثمين من المتاع؛ من نُقود مدَّ خرّة ومن حُلّى خلفتها أمّي
البرّة رحمها الله! ولم أفرط في شيء منها حتى الساعة لكنني وجدت
أن لا مفر من ترك الشيء الكثير مما لا يسهل الحصول عليه
فيما بعد. ولقد يعز عليّ أن أدع ورأى تلك الأعشاب
والجذور، وإن لم تكن بالشيء القسيم، فقد بذلت في جمعها
مجهودا غير قليل. بعد هذا اذا بقي مساعدتي من ورأى، فإن
في هذا ما يعزني على هجرى لمنزلي. ومتى نجوت بنقودي
وبجسدي فقد أنقذت كل شيء، وما أسهل النجاة على الرجل
الوحيد! ».

فقال له هرمن مؤكدا: « ما أراني أيها الجار مقرا لك
على ما تقول. بل أني أعاتبك على التحدث بمثل هذا القول.
أيجوز للرجل ذي الجدارة والفضل، ألا يفكر وقت الشدة
أو الرخاء إلا في نفسه، فلا تحرك قلبه عاطفة؛ ولا يجد لذة
في مشاطرة غيره السرور والحزن. أما أنا فلعمري ما أحسست
كالיום رغبة في أن أرتبط برباط الزواج، فكم من فتاة صالحة
تُعوزها حماية الرجل القوي، وكم من فتى حل به الشقاء فبات
في حاجة الى امرأة تبعث في قلبه السرور ».

هنا ابتسم الوالد وقال : « أَحْبَبُ إِلَى سَمَاعِ هَذَا الْكَلَامِ مِنْكَ ! وَلَقَدْ سَمِعْتُكَ تَنْطِقُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْحَكِيمَةِ مِنْ قَبْلُ » .

وقالت الأم على الأثر : « حَقًّا بُنَيَّ نَطَقْتَ بِالصَّوَابِ وَإِنَّكَ لَتَرَى فِي وَالِدِكَ خَيْرَ مِثَالٍ لِمَا ذُكِرَتْ . فَلَمْ يَكُنِ الْيَوْمَ الَّذِي أَرْتَبَطْنَا فِيهِ يَوْمَ سَعَادَةٍ وَرَخَاءٍ . وَبِرَغْمِ هَذَا فَإِنَّ سَاعَاتِ الشَّدَةِ قَدْ زَادَتْ رِبَاطَنَا وَثُوقًا وَمَتَانَةً ... »

« كَانَ الْيَوْمُ يَوْمَ اثْنَيْنِ فِي وَقْتِ الصَّبَاحِ . وَإِنِّي أَذْكُرُ هَذَا جَيِّدًا إِذْ كَانَ الْيَوْمُ التَّالِي لِيَوْمِ الْحَرِيقِ الْهَائِلِ ، الَّذِي اجْتَنَحَ مَدِينَتُنَا الصَّغِيرَةَ وَدَمَّرَهَا . - أَجَلٌ وَلَقَدْ مَضَى عَلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ عَشْرُونَ عَامًا كَامِلَةً . فَقَدْ كُنَّا فِي يَوْمٍ أَحَدٍ كَمَا نَحْنُ الْيَوْمَ ، وَكَانَ الْهَوَاءُ حَارًّا جَافًا وَلَمْ يَكُنْ بِالْمَكَانِ مَاءٌ إِلَّا الْقَلِيلُ . وَكَانَ النَّاسُ يَتَنَزَّهُونَ ، مَرْتَدِينَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِمْ ، وَقَدْ انْطَلَقُوا إِلَى الْقُرَى وَإِلَى الْحَانَاتِ وَالْأَرْحِيَةِ . فَاشْتَعَلَتِ النَّارُ فَجَاءَتْ فِي طَرَفِ الْمَدِينَةِ . ثُمَّ أَخَذَتْ تَجْتَنَحُ الطَّرِيقَ بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ ، وَفِي أَثَرِهَا رِيَّاحٌ شَدِيدَةٌ التِّيَّارُ قَدْ أَثَارَتِهَا التَّسِيرَانُ . وَلَمْ يَمُضْ قَلِيلٌ حَتَّى التَّهَمَّتِ النَّارُ مَخَازِنَ الْغَلَالِ ، بِمَا تَكَدَّسَ فِيهَا مِنْ مَحْصُولِ تِلْكَ السَّنَةِ الْغَنِيَةِ .

الكثيرة الخيرات . واحترقت الطرقات جميعا حتى الميضان ،
والتهمت النار دار والدى وكانت قريةً من هنا ، كما التهمت
هذه الدار أيضا . وما استطعنا أن ننقذ من متاعنا إلا القليل .
« فى تلك الليلة الليلاء بقيت ساهرةً عند المروج فى ظاهر
المدينة ، أحرس الصناديق والفُرُش . الى أن غلبنى النعاس
فنمت ، وعند الصباح أيقظتنى برودة الفجر ، فنظرت فاذا
الدخان المتصاعد والانقاض المتهبة بين الأسوار والمداخن
العالية . . وقد انقبض لهذا المنظر صدرى .

« وبرغم هذا لم تلبث الشمس أن طلعت فى كامل روعتها
وبهائها ، فبعثت فى نفسى روح البسالة والجلد ، فنهضت على
عجل ، وانطلقت وبنفسى رغبةً مُلحةً فى أن أتفقد الموضع
الذى كانت فيه دارنا . ولأنظر لعلَّ دَجَاجنا قد نجا ، فلقد كنت
أحبه حباً جمًّا ؛ وكنت بعدُ فى مثل سداجة الأطفال .

جعلت أتمشى فوق أنقاض الدار والحديقة ؛ ولم يزل يتصاعد
منها الدخان ، وقد أصبح المسكن الأمين قفرا بلقعا . ورأيتك
فى تلك الساعة مقبلا من الناحية الأخرى تتفقد المسكن ، وكان
جواد من جيادك محتبسا فى الاصطبل المدمر . وقد تكدست

فوقه كتل من الخشب المحترق والانقاض المضطربة : بحيث
لم يكن للجواد أثرٌ يرى .

وهكذا كنا واقفين : أحدا قبالة الآخر ، مُطْرَقَيْنِ
حزينين ، وقد تداعى الجدار الذى كان يفصل بين داريننا .
فقبضت أنت على يدي وقلت لى : « ما الذى جاء بك الى هنا
ياليزا ؟ ابتعدى فانك تحرقين نعليك ! فان بالانقاض ناراً
حامية تحرق نعلَيَّ ، على ما بهما من غلظ ومثانة . . ثم حملتنى
بين ذراعيك وأخرجتنى من فناء منزلكم ، الذى التهمته النيران ،
فلم تبق منه سوى الدّهلز الكبير بقوسه المعقودة ، على نحو
ما نراه الآن . وهناك أنزلتنى ، وجعلت تلشّمنى ، وجعلتُ
أدفعك عنى ، فتكلمت عندئذ بكلمات تسم عن الحب المتين ،
كما تسم عن العقل الرصين . فقلت : أنظرى الى الدار ، كيف
غدت أثراً بعد عين ! فلا تبرحى أو تساعدينى لأقيم بناءها ،
وأشيد صرحها . وأنا كذلك سوف أعاون أباك على بناء داره .
» لم أفهم لأول وهلة معنى هذه العبارات ، حتى جاءت
أمك الى والدى ، وعُقد لنا — على عجل — زواجٌ ناعمٌ
سعيد . . ومازلت الى اليوم أذكر ، فى شيء من السرور ،

تلك الانقراض المضطربة ، وأرى ماثلة أمام عيني شمس ذلك
اليوم ، وملؤها الروعة والجلال . فلقد رُزقت الحليل في ذلك
اليوم ، ورزقت بعد قليل ولدى البكر ، والمدينة بعد
خراب بلقع .

« من أجل هذا ، يا همر من ! أحمد لك هذا الايمان ،
وأناشدك أن تبادر فتختار لك في هذه الأوقات العصية ،
فتاةً صالحة ، تخطبها ، على رغم هذه الحرب الضروس ، وما
بها من تخريب وتدمير . »

وتكلم الوالد بشيء من الحماس قال : « ألا إنه لحاطرٌ
سعيد ما قد خطر لك أيتها الوالدة . والحكاية التي قصصتها
صحيحة في كل جزء من أجزائها . ولكن هنالك حال خير
من تلك الحال . فليس بمُقدَّرٍ لكل إنسان أن يبتدىء حياته
من جديد . فيجد وينصب ، كما كنا نحن نجد وننصب . وإنما
السعيد حقاً من أسلمه الولدان داراً عامرة ، ثم يتسع رزقه
فيزيد في جمالها وزينتها .

« إن البدء في كل شيء أمر عسير . وعسير بنوع خاص
البدء في إقامة منزل وعمارته . وحاجات الانسان كثيرة

متعددة، وأثمانها تزداد في كل يوم. فيبذل المرء جهده كي يزداد ماله . . ولهذا أرجو يا هرمن أن تبادر بعد قليل ^باختيار زوجة طيبة، تدخل هذه الدار ومعها مهر صالح. والفقي الصالح أولى الناس بالزوجة ذات اليسار. وهو جدير وحقيق بأن تدخل إليه الحسنة، تتبعها الصناديق والأسفاط، فيها الهدايا النافعة. وليس من العيب أن تقضى الأم السنين الطوال، في إعداد الأقمشة، التي تجمع بين الدقة والمتانة من أجل ابتها، وليس من العيب أن يهدي الأقرباء ما عندهم من الأواني الفضية. وأن يفتش الوالد في داخل أدراجة عما خبأ فيها من قطع الذهب النادرة الوجود. ليس هذا كله عيباً، لأن الفتاة، بكل هذه الهدايا والمنح ستشرح صدر عروسها، الذي اختارها واصطفها على سائر النساء.

وإني لأعلم ما تحسسه الزوجة الفتاة من ارتياح واعتباط، حين تنظر إلى البيت الذي اتخذته داراً لها، قترى في المطبخ وفي كل حجرة من الحجرات أوانيتها التي جلبت معها، والفرش الذي فرشته، والمائدة التي أعدتها هي وبسطتها . . أجل وإني لمُصِرٌّ على ألا تدخل هذه الدار إلا عروس مجهزة مشورة.

فان الفقيرة لا تلبث أن يحقرها زوجها ، وينظر اليها كما ينظر إلى الخادم ، إذ دخلت الدار وليس معها إلا حقيبة خادم . والرجال قليلو الانصاف وأوقات الغرام سريعة الزوال . . « أجل يا عزيزى هرمن ! لئملأن كهولتى سروراً لو أنك أسرعت ، فاقتردت الى هذه الدار عروساً من فتيات هذه الناحية ، بل من بنات جيراننا : من تلك الدار الخضراء التى أمامنا . والرجل لعمرى من السراة ، وله تجارة وصناعة يزداد بهما فى كل يوم غنى : وأى التجار لا يكسب ويربح ؟ وليس له من البنات إلا ثلاث . ستؤول اليهن وحدهن كل تلك الثروة ، أما الأولى فقد خطبت وقضى الأمر ؛ وبقيت الثانية والثالثة . ولكن لن تبقيا هكذا طويلا . ولو كنت مكانك ما ترددت حتى الساعة . بل لبادرت فظفرت باحدى الفتاتين . كما فُزْتُ أنا من قبل بأمك العزيرة . »

لم يجد الفتى بُدّاً ، أمام إلحاح والده وإصراره ، من أن يجيب على مقالة . فقال فى تواضع وحياء : « لقد كانت إرادتى من قبل وفق إرادتك اليوم : أن أختار إحدى بنات جارنا . فلقد

نشأنا ورؤيتنا معاً . ولطالما لعبنا معاً في تلك السنين الغابرة
لدى البئر التي في الميدان . وكثيراً ما وقفت دونهن ، أدفع
عنهن شراسة الصبيان . بيد أن هذه أيام قد خلت . وقد وقر
الفتيات في دارهن بعد أن كبرن . وأصبحن اليوم بعيدات
عن ألعابنا الخشنة .

« أما أدبهن العالی فأمر مسلم به . ولقد كنت أختلف الى
دارهن من حين الى حين ، تبعاً لارادتك ، واستبقاءً للودة
القديمة . ولكنني ما أحسست يوماً سروراً أو اغتباطاً
بصحبتهم والتحدث اليهن . فلقد كن دائماً يجدن في موضعاً
للقصد واللوم . وكان على أن أتقبل هذا كله منهن ! فأحياناً
الأم لأب ردائي طويل وقماشه خشن ولونه قبيح ذميم .
وآونة الأم لأنني لم أحسن تصفيف شعري وتجهيده . حتى
لقد صممت أخيراً أن أتألق في ملابسي وأتزوج ، كما يفعل
أولئك الفتيان من أولاد التجار ، الذين القاهم أبداً هناك في
الآحاد ، والذين تتدلى قطع الحرير من ثيابهم دائماً في فصل
الصيف . لكنني لم أكد أفعل ذلك ، حتى جعلن يسخرن مني
فكان هذا مؤلماً لنفسي ، جارحاً لكبريائي . على أن الذي

اسقمنى وعناني حقاً أنهن كن ينكرن منى كل كلمة طيبة أو نية
صالحة اتقرب بها اليهن جميعاً، والى (مينا) الصغرى خصوصاً
فلقد ذهبت لزيارتهم فى عيد الفصح الاخير، ولبست فى ذلك
اليوم ثوبى الجديد، وهو المعلق فى الخزانة الآن، ولبست
شعراً مستعاراً مصنففاً شأن بقية الفتيان، لكنى لم أكـد أدخل
حتى جعلن يتخالسن الضحك. فلم أبـد اشارة، كأن غيرى
المقصود بهذه السخرية. وكانت (مينا) جالسة الى اليمانو، وكان
والدهن جالساً يصغى منشرح الصدر، وقد أطربه غناء ابنته،
أما أنا فقد استعصى على ادراك الكلمات التى اشتملت عليها
الاغاني، ولكنى سمعت اسمين يترددان المرة بعد المرة وهما
(پامينا) و(تامينو) (١) ولم أرد أن أبقي صامتة لا أنطق بحرف. فلما
انتهى الغناء جعلت أسأل عن القطعة وعن ذينك الشخصين،
فسكت الجميع وهم يتسّمون. ثم نظر إلى أبوهن، وقال:
أليس صحيحاً يا صديق أنك لا تعرف من بنى الانسان غير

(١) Pamina و Tamino شخصان فى إحدى أوبرات موزار الشهيرة وهى
الناى المسحور (Zauber floete). وفى السنة التى تجرى فيها حوادث هذه
القصة (حوالى سنة ١٧٩١) كانت هذه الأوبرا بعد حديثه جداً، فلا ينتظر من فى
سازج مثل هـرمـن أن يكون قد علم من أمرها شيئاً كثيراً.

آدم وحواء؟» عند ذلك لم يستطع أحد من الحاضرين أن
يمسك نفسه ، فأغربت القتيات في الضحك ، وأرعد الفتيان
ضاحكين ، وقبض الوالد على بطنه يديه . وملكتني أنا الحيرة
فسقطت قبعتي من يدي . وبقي الجميع معنيين في الضحك ،
حتى أثناء العزف والغناء . ولم أطق صبراً على كل هذا فعدت
مسرعا الى منزلي ، وأنا نهية للكآبة والخجل . فخلعت تلك
الثياب وأودعتها الخزانة ، وانتزعت ذلك الشعر بأصابعي .
وأقسمت لا ووطئت رجلى عتبة دارهن بعد ذلك اليوم .
وحق لي هذا فان رؤوسهن قد امتلات بالغرور والخيلاء ،
بقدر ما خلت قلوبهن من الحب .

ولقد علمت أنني مازلت أدعى في دارهن (تامينو) الى وقتنا هذا
فقالته الام : « ما ينبغي لك يا هرمن أن تطول موجدتك
على أولئك الطفلات — وما هن في الحقيقة الا طفلات —
ومينا الصغيرة فتاة صالحة ، وكانت أبدا تعطف عليك ومنذ
عهد قريب كانت تسألني عنك . وتحسن لو اتخذتها زوجا لك »
فأجاب الفتى مفكراً : « لست أدري ، غير أن السكدر الذي
استولى على ذلك اليوم قد ترك في قلبي أثراً عميقاً . فبت وما

بنى رغبة لرؤية مينا ولا للانصات الى عزفها وغنائها .
 وتسكلم الوالد فى شئ من الحدة والغضب فقال : « ما أراى
 واجداً منك شيئاً تراح اليه نفسى . ولطالما قلت لك هذا
 مراراً وتكراراً . حينما كنت أراك وليست لك فى الحياة لذة
 سوى الاهتمام بالمزرعة وبالحيل . وتلك لعمري أعمال يؤديها
 غلام من غلمان السادة ذوى اليسار . فكيف لمثلها ينصرف
 الابن بدلا من أن يقوم بما يرفع رأس أبيه بين أهل المدينة .
 ولطالما كانت أمك تعلقنى بالأمانى الكذاب ؛ حينما كنت
 عاجزاً وأنت بالمدرسة ، عن تعلم الكتابة والقراءة وحفظ
 الدروس كما يفعل سائر الفتيان . فكنت الاخير من بينهم
 جميعاً . ولعمري لقد كانت تلك حالا لا مفر منها ، مادام
 صدر الشاب خالياً من الشمم والكبرياء . فلا يطمح ببصره
 الى المعالى .. آه لو أن أبى عنى بأمرى عنايتى بأمرى . فأرسلنى
 الى المدرسة وخصص لى المعلمين والمؤدبين ! أجل لو أنه فعل
 هذا كنت اليوم شيئاً آخر غير صاحب خان (الاسد الذهبي) .
 عند ذلك نهض الغلام واقرب من الباب فى صمت وفى سكون
 وهدهوء يريد الخروج لكن الوالد أتبعه هذه الكلمات وهو

حانق غاضب : « أجل فلتذهب ولتصرف عنا ! وأنا عالم بما
فى رأسك من عناد واصرار . اذهب اذن وانظر فى شئون
الدار والمزرعة . كى لا أسمعك من التقريع أمرّة وأقساه !
لكن حذار أن تجلب يوماً الى هذه الدار فتاة من بنات
الفلاحين رعاة الابقار لتكون لابنى زوجا ! لقد عشت طويلا
وتعلمت كيف أعاشر الناس وكنت أحتفى بهم . فيرجعون
قريى اللاعين ، منشرحى الصدر . وتعلمت كيف ألاطف الغريب
وأدخل على قلبه السرور . ولهذا لا بد لى فى النهاية من أن
تكون كينتى فتاة طيبة . تسينى بحلاوة خلقها ما قاسيت
من مرارة وعناء . ولا بد أن تجيد العزف على البيانو . ولا بد
أن تصبح دارى ملتقى الطبقات الأنيقة من أهل المدينة .
يفدون اليها ويقبلون على زيارتنا كما يفعلون أيام الآحاد فى
دار جارنا . »

وهنا أمسك الفتى بمزلاج الباب . وفتح بهسكون وغادر
الحجرة .

....

النشيد الثالث

طاليا^(١) THALIA

(الربة الكوميديا)

سكان المدن

هكذا اعتصم الفتى المتواضع بالفرار، هرباً من ذلك
الخطاب العنيف ..

غير أن الوالد لم تهدأ ثأثرته، وعاد الى الكلام كما بدأ .
فقال : « انك لن تستخرج من إنسان ما ليس فيه . وهيات
أن أشهد تحقيق أمنيتي العزيزة التي أتمناها أبدا : وهي أن الولد
يجب ألا يكون مشابها لأبيه ، بل أعلى منه درجات . وإلا

(١) في هذا الفصل يسخر المؤلف بالطبقات المتوسطة (البورجوا) . وكلمة
« سكان المدن » لا تؤدي تماما معنى بورجوا : فهؤلاء عادة جماعة ذكور يسار يتشبهون
بالخاصة ولكن عقليتهم السطحية تفرجهم من العامة . فالربة الكوميديا اذن تلائم هذا
النشيد تماما . وصاحب الفندق يمثل هذه الطبقة أحسن تمثيل هو والصيدلي .

فأين يكون مصير الأسرة، بل مصير المدينة كلها، اذا لم يكن همُّ كل فرد أن يحرص على تالده، ويستحدث الطريف الجديد، ويعنى أبدا بتحسين ما لديه ؟ ..

« ذلك هو الدرس الذى علمنا إياه الزمان . كما علمتنا إياه البلاد الأخرى . . وما ينبغى للانسان أن يكون مثله كمثل نبات (عيش الغراب) ، ينمو فى الثرى . ثم يدركه العطب فى المكان الذى نماه وأخرجه ، دون أن يترك وراءه أثرا فيه مظهر من مظاهر الحياة .

« وحسب المرء نظرةً يلقيها على الدار ليعلم من صاحب الدار ، وما مبلغ ذكائه وعقله . كما نعلم كيف تُدار المدينة وكيف تحكم لمجرد خطوات نخطوها فى طرقاتها (١) . فحيث ترى الأبراج قد تداعت ، والأسوار قد مالت . والخنادق والأزقة قد تكدست فيها القمامة وحيث الأحجار قد تقلقلت فى كل بناء ، فلا ترد الى مواضعها . وحيث الدعائم توشك أن تنهار ، والحاجة مُلحّة الى دعائم جديدة . فحيث ترون ذلكم كله

(١) يجب تنبيه القارىء الى أن ألمانيا فى ذلك الزمن كانت مقسمة عدة وحدات مستقلة . تتركب أحيانا من مدينة صغيرة وقطعة من الارض تحيط بها .

فأيقنوا أن المدينة قد ساءت حكومتها . . لأن الطبقات العليا
إذا لم تفرض النظافة والنظام فرضا على من دونها، فسرعان
ما يعتاد أهل المدينة القذارة والاهمال، كما يعتاد الشحاذ لبس
الرداء الخلق .

« كثيرا ما وددت لو أن هرمن يبادر بالقيام ببعض
رحلات . . فلا أقل من أن يزور استراسبورج وفراנקفورت،
ويرى مدينة مانهم الجميلة البناء والتنسيق . فان من شاهد المدن
الكبرى وما بها من نظافة ورؤاه، فلن يقر له قرار حتى يعجل
بتجميل مدينته مهما كانت صغيرة .

« أرايتم كيف يعجب الغرباء بأبواب مدينتنا بعد إصلاحها،
وبالبرج الناصع البياض، وبالكيسة بعد تجديدها؟ أليس الكل
معجبا بطرقنا المرصوفة، وبالقنوات ذات المياه الجارية المغطاة،
المنتشرة في كل ناحية . وهي على كثرة فائدتها مصدرة للسلامة
والأمن، وبواسطتها استطعنا مكافحة النيران عند بدء اشتعالها .
« فحدثوني بالله، ألم تتم هذه الأعمال كلها منذ ذلك الحريق
المروع؟ ولقد كنت في مجلس المدينة ست مرات، متوليا
رأسه الأعمال العامة، فقممت بما جعلني جديرا بأن يهتف لي

أهل المدينة وأن يبذلوا لى جزييل شكرهم . فلقد كنت أقترح الخطط . ثم أمضى فى تنفيذها ، بل وفى تنفيذ ما اقترحه سواى من أهل المدينة ثم عجزوا عن إكماله وإتمامه . واخيرا دب الحماس فى أعضاء المجلس جميعا ، فجعل كل منهم يجد ويدأب . حتى لقد أصبح فى حكم المقرر إنشاء ذلك الجسر العظيم الذى يصل المدينة بالطريق الجديد .

« لكننى أخشى كثيرا أن الشباب لن يتخذنا مثالا وقدوة ، فهم إما فريق لا يفكر فى غير السرور والملاذات ، ولا يعنى بغير الأنيق من اللباس ، والتأفة من الأمور . وفريق آخر يقبع فى عقر داره ، ويختفى وراء موقد النار مدى الحياة .. وإنى لأخشى أن هرمن سيبقى أبدا من هذا الطراز . »

فقالت الأم وهى تلك المرأة الصالحة العاقلة : « انك أيها الوالد ما كنت يوما منصفًا لابنك . وانك بهذا تجعل من العسير أن يتحقق رجائك فيه .

وليس فى وسعنا أن نكون أبناءنا وفقا لأهوائنا . أليسوا هبةً وهبنا الله إياها ؟ فما علينا إلا أن نحرص عليهم ، ونبذل لهم كل حب ورعاية ، ونحسن تربيتهم بقدر استطاعتنا ، وبعد ذلك

تركهم وشأنهم . فإن لكل منهم مواهب ، يستخدمها وينتفع بها .
غير مواهب الآخرين . ولن يصيب الواحد منهم صلاحا
أو سعادة في الحياة إلا بما يقتضيه مشربه ونزعه .

« واني لن أسمح لأحد أن يضع من قدر ولدى هرمن ،
وأنا أعلم علم اليقين أنه حقيق وجدير بتلك الثروة التي ستؤول
يوما إليه . . فهو ربُّ منزلٍ قلَّ أن يوجد له نظير . ومثال
يقتدى به أهل الحضر وأهل الريف على السواء . وأرى من
الآن ، وأنا واثقة بما أرى ، أنه لن يكون الأخير في مجلس
المدينة ودار ندوتها . لكنك بهذا اللوم والتقريع ، في كل
لحظة وآونة ، تكدر صفاءه ، وتجعل صدره ضيقا حرجا .
كما فعلت الساعة » .

وبعد أن قالت هذه الكلمات ، غادرت الحجرة مسرعة ،
تبحث عن نجلها ، لعلها ان لقيته أن تأخذ في ملاطفته ومؤانسته ،
وأن تعيد السرور الى قلبه . وهو بهذا كله جدير .

ولم تكد الأم تخرج حتى ابتسم الوالد ، وقال :

« حقاً إن النساء لجنس غريب: وما هن في الحقيقة إلا كالأطفال،
تسير كل واحدة منهن حسب ما يمليه هواها، وعلينا نحن أن
نسترضيهن بالملاطفة حيناً، وبالثناء عليهن حيناً.

« غير أنني ما زلت مصراً على صحة ذلك المثل الذي علمنا
القديماء إياه وهو: من لم يسر إلى الامام، رَجَعَ القهقري ».

فقال جارهم الصيدلي متمهلاً، كأنما يزن الكلام وزناً (١):
« أوافقك كل الموافقة على ما قلت. وأنا نفسي أتلتمس الأحسن
وأنشده دائماً: على شرط ألا يكون غالى الثمن، مع جودته
وجدته. وإلا فإذا يجدي على الإنسان دأبه وجده في إصلاح
ما لديه، ظاهراً وباطناً، إذا لم يكن كيسه مفعماً بالمال؟ إن
ساكن الحضر محدودة موارده جداً، فهو قد يرى الشيء الصالح
فلا تجرؤ نفسه أن تشبهه، وما دام كيسه قليل النقود وحاجاته
كثيرة العدد، فلا عجب إذا رأيتَه أبدا عاجزاً، مكتوف
اليدين.

« وأنا نفسي أود أن أقوم بأعمال شتى: لكن من ذا الذي

(١) جعل المؤلف من هذا الصيدلي مثلاً للرجل الذي يقول أنه الأقوال بشكل
من يتكلم كلاماً ذا أهمية كبرى. ولهذا هو يزن كلماته وزناً.

لا يحجم ولا يتردد أمام النفقات الباهظة ، خصوصاً في هذه
الأزمة الخطيرة؟ فمذ عهد بعيد أفكر في تسميق منزلي وتجميله
طبقاً للشرب الحديث : بحيث يصبح لنوافذه الفسيحة زجاج
كبير لامع براق . ولكن من منّا يستطيع أن يقتدى بذلك
التاجر الذي يعرف على رغم كثرة أمواله ، كيف يحصل على
أحسن الأشياء بأبخص الأثمان ؟ أنظر الى داره الجديدة التي
بناها قبالتنا ! ما أجمل أعمدها اللؤلؤية البيضاء ومن ورائها
الحديقة الخضراء . وانظر إلى زجاج النوافذ وحجمه الكبير !
وكيف يلعب كأنه مرآةً وضيئةٌ . حتى لقد تلاشت بجانبه سائر
المنازل في هذا الميدان . . . ومع ذلك ألم يكن يتي (صيدلية الملاك)
وبيتكَ أنت (الأسد الذهبي) أحسن بيوت هذا الميدان جميعاً
بعد الحريق بزمن وجيز ؟ ولقد كانت لحديقتي شهرة في سائر
الأقاليم . وما من مسافر إلا وقف لديها لحظة ينظر من خلال
السياج الى التمثال الحجري للشحاذين ، والصورة الملونة للأقزام .
ولكم دعوت الأضياف الى تناول القهوة في الغار المشيد بالحديقة -
وهو الآن قد أخذ يتداعى ويعلوه الغبار - فكانوا جميعاً يعجبون
أشد الإعجاب بذلك الضياء المتعدد الألوان المنبعث من القواقع

المنضدة أحسن تنضيد . . وكان الخبير بهذه الأشياء ينظر حائرا
إلى لمعان الرصاص والمِرْجَانِ المصطنع . وكذلك كانوا
يعجبون بصورة في الصالون تمثل سيدات وسادة يتزهون
في الحديقة ، لا بسين أبهى الثياب ، ويتناولون الأزهار بأيديهم ،
أو يمسكونها بأطراف الأصابع .

« أما الآن فمن ذا الذي يلقى مجرد النظرة على شيء من هذا ؟
إني أنا نفسي - لشدة غيظي - قلبا أخرج الى الحديقة الآن .
وقد أصبح من الواجب تغيير كل شيء ، لكي يصبح وفاقا
للذوق الحديث كما يزعمون . ويجب أن تغطي الأخشاب جميعا
باللون الأبيض وكذا المقاعد الخشبية . ويجب أن يكون كل شيء
بسيطا خاليا من كل حلية . فلا ينبغي أن تكون هنالك أخشاب
محفورة أو مذهبة . والأخشاب الأجنبية هي أعز أنواع
الخشب وأغلاها .

« ولهذا تراني على شدة ولعي باقتناء الجديد ورغبتي في مسيرة
الزمن ، بأن أُغَيَّرَ وأبدل أثاث المنزل من آن لآن ؛ أجد الناس
جميعا يحجمون حتى عن تبديل أقل الأشياء . وأصبح العمال
بحيث لا يستطيع أحد دفع أجورهم .

« ولقد خطر لي حديثاً أن أكلف من يقوم بتذهيب
الملاك ميكائيل ، وهو كما تعلم شعار الصيدلية ، وكذا التَّسْنِينِ
المخيف الملتف حول رجليه . ولكنني اضطررت ، لارتفاع
البحر ، أن أتركه ليكتسب اللون الأسود على مضى السنين . »

....

النشيد الرابع

يوتريا EUTERPE

(الرنة الشعر الغنائى)

الأم وابنها

وبينما الرجال يتجاذبون أطراف الحديث : ويلتمسون
فى الحديث ما استطاعوا من لهو وتسليه ، كانت الأم منهمكة
فى البحث عن فتاها . فتفقده أولا خارج البيت على المقعد
الحجرى الذى اعتاد الجلوس عليه . فلما لم تجده هناك انطلقت
الى الاصطبل لعله قد ذهب هناك : الى تلك الصافيات الجياد ،
التي اشتراها وهى أمهار ، وأبى أن يقوم على رعايتها أو يُعنى
بها أحد سواه .

أنبأها الخادم أن مولاه انطلق الى الحديقة ، فجعلت تجتاز
الفناءين على عجل ، تاركة وراءها الاصطبل ، والاجران

المحكمة البناء . ودخلت الحديقة : فاذا هي فسيحة الأرجاء ، قد امتدت الى سور المدينة : وقد أقرَّ عينها ما رآته فيها من تماٍ وازدهار . فجعلت تقيم المتداعى من الدعائم التى تستند عليها غصونُ التفاح ، أو فروعُ الكهثرى ، المجلَّلة بالثمار . وتنتزع الحشرات والديدان عن الكرب الذى أمعن فى النمو . كانت تعمل هذا كله وهى سائرة فى طريقها ، لأن المرأة النشيطة لا تخطو خطوة خلوا من النفع والفائدة .

وأخيراً وصلت الأم الى نهاية الحديقة ، حيث الجوسق يكسوه الياسمين . لكنها لم تجد للفتى أثراً لاهنالك ولا فى سائر الحديقة . بيد أنها لاحظت أن باب الجوسق منفتح قليلا وهو باب صغير قد رُكِّبَ فى سور المدينة . وهذا دليل الخطوة والرعاية التى نالها أحد الأجداد إذ كان للمدينة عمدة من خيار العمدة .

خرجت الأم من ذلك الممر الى ما وراء السور . وهنالك أبصرت الكروم يحيط بها سياج متين الصنع : وقد غُرست على منحدرات تسطع فيها أشعة الشمس . وقد امتدت غُرُوشها صاعدة على تلك المنحدرات .

صعدت الأم وسط هذه العرائش ، وقدراقها مارأته
من وفرة العناقيد . حتى ما تكاد الأوراق أن تخفيها .
وكان بين العرش طريق مُظْلَل يَرْتَقى الى أعلى الكشيـب
ويُصْعَدُ اليه بدرجات غير منتظمة من الحجر . ومن العرش
كانت تتدلى عناقيد العنب الرَازِقي والمسكاتى ، والى جانبيها
عنب بَنَفْسَجِيّ اللون ، قد امتاز بحباته الضخمة .

هذه الكروم جميعاً قد غرست من قبل بحمد وعناية ،
لكى تتحلى بثمارها مائدة الضيوف بالفندق . وعلى الكشيـب ،
غير هذه العرش ، شجرات مبعثرة حباتها أصغر حجماً ، ومنها
تعصر تلك الصبء الغالية .

جعلت الأم تصعد الكشيـب ، وقلبي يحس السرور سلفاً
لاقتراب الخريف ، ولما يُؤْذَنُ به من أعياد يحتفل فيها أهل
الناحية . فيجتنون أطيب العناقيد ، ثم يدوسونها بأرجلهم (١)
ويجمعون العصير فى الخواوى . وفى المساء - تسكريمًا للغلة الوافرة -
تُرى الألعاب النارية وهى تملأ الفضاء بأضوائها ووضوئها .

(١) عصر الخمر بواسطة الأرجل (بعد غسلها بالطبع) كان شائعاً فى ذلك
الوقت . كما أنه ذائع فى مصر لاستخراج الزيت من بعض البذور مثل السمسم وغيره .

لم تلبث الأم أن ازداد قلقها ، حين نادت ولدها مثنى
وثلاث . فلم يجيبها غير رجع الصدى ، تردده أبراج المدينة ...
ولم يكن من عادتها أن تقتش عنه ، ولا من دأبه أن يذهب
بعيداً . وما كان له أن يذهب دون أن ينبئها بذهابه كي يهدأ
رووعها ، ويطمئن قلبها .

على أنها لم تزل ترجو أن تلقاه في هذا الطريق ، لأنها
رأت أن بابي الكرم : الأسفل والأعلى ، كلاهما مفتوح .
فاجتازت البابين الى الحقول التي بظهر الكثيب ، وهي أيضاً
من ممتلكات الأسرة . وقد سرها منظر البر ، قد مالت سنابله
موقرةً بما تحمل من حبٍّ ذهبي .

جعلت تمشي وسط المزرعة في ممر ضيق . ووجهتها
دوحة الكمثرى القائمة على ربوة تلى الكثيب . وهي الحد
الذي تنتهي اليه ممتلكات الأسرة .

وهذه الدوحة علم بارز ، تلححه العيون من سائر أطراف
الاقليم ، ولثامها شهرة واسعة ؛ ولا يعرف أحد من الذي
غرسها .. وكثيراً ما يأوى إليها الحاصدون ورعاة الأبقار ،
فيجلسون في ظلها ساعة الظهيرة ، ولهذا كان تحتها مقاعد من

الحجر الخشن والعشب اليابس .

ولم يكذب ظن الأم ، فلقد كان هـرمن هناك حقاً ، كان
جالساً في ظل الشجرة معتمداً ذراعيه . وكأُما ينظر إلى
الجبـال ، مولئاً ظهره الى الناحية القادمة منها أمه . فتقدمت
هذه نحوه في هدوء ورفق ، ولمست كتفه بيدها . فالتفت اليها
فجأة ، فرأت الدمع يترقرق من عينيه .

فقال لها وهو كالماخوذ : « أمـاه إنك أتيتني على غـرة ! »
وجعل يكفكف دمعـه على عـجل

فـقالت الأم ، وأحـزنـها ما رآته : « ما هذا ، أتـبـكي يا بنـي ؟
إنـي أنـكر هـذا منك ، وما عهـدتك يوماً بالذي تدمع عـيناه !
قل لي ما الذي انقبض له صدرك وألمت له نفسك ، ودفع
بك الى الانفراد في ظل هذه الشجرة ؟ ولم يكفك هذا حتى
جعلت تذرف الدمع ؟ »

فتمالك الفتى نفسه وقال : « إن الذين لا تأخذهم عاطفة
رحمة على أولئك الشريرين ، هم أناس صدورهم من نحاس ،
وليس بين جوانحهم قلوب . وقليل العقل جداً من لا يُعنى
في هذا الزمن العصيب بسعادته وسعادته وطنه . . . ولقد ألمت

يا الذكور ابن
أحمد عشرة
في ظل شجرة الزيتون
في (درب الحلي)
!!!
وفي بقعة العنق
ومعه بندقيته
صيد !!!
لحق به
أمه !!!
والعائلة
تتبعهم !!!

نفسى اليوم لما سمعته بأذى وما أبصرته بعينى ، ونظرت الآن
الى ما حولى : فرأيت هذه المزارع المترامية الأطراف ،
تكسو الكشبان والسهوب ، المحيطة بنا من كل صوب :
ورأيت السنابل الذهبية ، وقد مالت تنتظر الحصاد . والفاكهة
اليانعة وتوشك أن تكتظ بها خزاننا . . . ولكن ماذا يجدى
هذا كله والعدو على أبوابنا ؟

« ولئن قيل إن نهر الرين بتياره المتدفق يحمينا ويعصمنا ،
فلأى نهر وأى جبل يستطيع أن يقينا بأس ذلك الشعب الخفيف ،
الذى يزحف علينا كأنه الريح العاصف ذات البروق والرعود .
وهاهم أولاء قد أهابوا برجالهم شباناً وشيباً ، واحتشدوا
زمرة فى إثر زمرة ، وفوجاً وراء فوج . وأخذوا يزحفون
علينا بعنف ؛ وهم فى عديدهم الهائل لا يرهبون الردى ، ولا
يُقلّ لهم عزم . ثم بعد هذا نرى من الألمان من يجرؤ على البقاء
فى داره ، كأنما سولت له نفسه أن سوف يُفلت مما يتهدد
الناس جميعاً من الويل والثبور .

« فيأياها الأم العزيزة ، إننى اليوم كدت أتميز من الغيظ ،
إذ ذكرت أنهم قرروا اعفائى ، حينما اختاروا المقاتلين من

ما اعظم البسمة
بنتك وبسمة
في تلك الفترة

أهل المدينة . لست أنكر أنني الابن الوحيد ، وأن بيتنا كبير ،
وأعمالنا ذات شأن وخطر . ولكن أما كان أجمل بي وأجدر
أن أقف هناك على الحدود مدافعاً ومانعاً ، من أن أبقى هنا
أنتظر الشقاء والاستعباد ؟ أجل وبهذا تحدثني نفسي . وإني
لأُحسُّ في أعماق قلبي بأساً وعزماً يدفعاني لأن أحيي للوطن
وأموت للوطن ، وأكون للآخرين قدوة ومثلاً .

« ولعمري لو أن شباب الألمان بكامل قوتهم احتشدوا
على الحدود ، مجتمعين على ألا يهينوا أمام العدو : إذن لما
استطاع أن يطأ هذا الثرى العزيز بأقدامه ، وأن يلتهم ثماره
اليانعة أمام أعيننا ، وأن يتحكم في رجالنا ، وأن يسلبنا
نساءنا وبناتنا .

« انظري يا أماه ! إني قد قرَّ رأيي ، وصح عزمي على أن
أبادر الساعة ، بل هذه اللحظة ، الى إِمضاء ما أراه عدلاً
وصواباً .. ولا خير في تفكير طويل ، قد لا يهدي الى
الرشد دائماً . وما من داع الى أن أعود الى دارنا : بل أنطلق
من هنا الى المدينة رأساً ، فأقدم الى الجند هذه الذراع وهذا
القلب من أجل خدمة الوطن » .

لستُ كان
دأوتُ مثل
!!!

« فهل يصبر الوالد بعد هذا على أنى لست ممن يحيش
بصدرهم طبع كريم ، أو يتطلعون بأبصارهم الى المعالى ؟ »

سالت عبرات الام الطاهرة — وهى سرعان ما تدمع
عينها — وأجابته بعقل وروية : « أى طارىء يابئنى قد بدل
من طبعك ومن خلقك ، فأصبحت لا تخاطب أمك بتلك
الصراحة التى عودتها إياها بالأمس ، وقبل الأمس . وأمسيت
وما تحدثها بحقيقة ما تضرره وما تريده ؟ لو سمع قولك الآن
ثالث لخدعته عبارتك وحديثك الخطير : ولأنتى عليك أطيب
الثناء ، وحكم بأن عزمك هذا من أشرف الأمور وأجلها .
« أما أنا فانى ألومك ، لأننى أدرى بك وأعرف ...
إنك تكتم فى قلبك سرا ، وتخفى خلاف الذى أبديت ..
وأنا أعلم أنك لست بمن يستهويهم دق الطبول وصوت الأبواق .
ولا ممن يلذ لهم أن يظهرُوا أمام الفتيات فى ثوب الجنديّة
البراق . وبرغم ما أنت عليه من شجاعة وإقدام ، فإن مهنتك
التى تهواها هى أن ترعى المنزل ، وتعنى بالمزرعة . إذن فلتجبنى
إجابة صريحة : ما الذى دفعك الى ما عزمتم عليه ؟ »

فأجاب الفتى: « لقد أخطأ ظنك يا أماء ! فان المرء لا يبقى
على حال مدى الأيام . والفتى ينضج فيغدو رجلاً . وأولى
له أن ينضج في هدوء وسكون ثم ينهض بجليل الأعمال ، من
أن يكون نضوجه وسط ضوضاء حياة مضطربة جامحة .
طالما كانت نكبةً على الفتیان . . . وإني برغم ما كنت عليه
أبدأً من الهدوء ، قد نما في صدرى قلب حساس يبغض الظلم
والأذى . وأصبحت قادراً على التفريق بين ما فى هذه الحياة
الدنيا من أمور ومذاهب . ولقد كان العمل فى المزرعة سبباً
فى أن اشتد ساعداى ورجلاى ..

« إن هذا الذى أزعجه صحيح كله ، وفى وسعى إثباته
وتوكيده ... غير أنى لست أنكر أنك أصبت أيتها الأم ! فى عتابى
ولومى . فلقد أخذت على كلمات قلتها الآن ، فيها شائبة كذب ،
وفى شائبة رياء . وإني أعترف لك بأنى لست أبغى هجر الديار
خوفاً من الخطر المحدق ، أو من أجل فكرة سامية تدفعنى
لأن أكون للوطن عوناً ، وعلى الأعداء حرباً . . . هذه عبارات
فُتت بها لعلى استر بها عنك ما بقلبي من وجد يكاد أن يشقه
ويمزقه . فذرينى الآن أمضى ما عزمتم عليه . فلئن أصبحت

وما يحيش بصدري سوى آمال ضائعة ، فأجدرُ بهذه الحياة
أن تذهب في إثرها .

« وإنى لأعلم علم اليقين ، أن الأفراد إنما يسسرون الى
الدمار من غير جدوى ، إذا لم يستشعروا المنفعة العامة فيما
يأتون من الأعمال . »

فقالت الأم العاقلة : « إمض في حديثك ؛ وقص على كل
شيء ؛ من جليل أو حقير ! .. إن الرجال فيهم عنف وشدة ،
فلا يلتمسون من الوسائل إلا ما فيه غلوٌ وإفراط . وبرغم
شدتهم وعنفهم فانهم كثيراً ما تخرجهم العقبات التي تعترضهم
عن الجادة القويمة . أما المرأة ففاهرة في التماس أواسط الأمور ،
وتعرف كيف تسلك أحياناً طريقاً بعيدة توصلها الى غايتها
ومقصدها .

« فقص على الآن كل شيء . » ولتحدثني بما أثار أشجانك
بمثل هذا العنف الذي مارأيتك منك يوماً ، وبما أهاج الدم في
عروقك ، وأسال الدمع من عينيك ، على الرغم منك . »
هنالك خان الفتى تجلده ، وغلبه الحزن والشجن . فجعل
يبكى ويتحب ، مستنداً الى صدر أمه : وقال بصوت فيه حزن

ورقة : « إن الذي قاله اليوم أبى قد جرحنى جرحاً دامياً ،
ما أظننى أستحق هذا منه اليوم ، وما أظننى كنت يوماً مثله
مستحقاً . فلقد كنت وليس أحب الى نفسى من تمجيد أبوى
وإعزازهما . وما كنت أرى فى الحياة من هو أكثر عقلاً
وأحكم رأياً من هذين الذين ربيانى صغيراً . ثم جدّ فى إرشادى
وتأديبى طوال عهد الطفولة المظلم .

« ولطالما كنت أحمل الاساءة والأذى من أترابى ، إذ
يقابلون حركاتى البريئة بالحقده والموجدة : وقتلاً كنت آبه لهم ،
أو أقابل منهم الأذى بمثله . . بيد أنى إذا رأيتهم يهزأون بأبى
حين يخرج من الكنيسة تكسوه الهيبة والوقار ، أو يسخرون
من الرباط المعقود حول قبعته ، أو الأزهار المطرزة على
جبّته التى كان يلبسها فى جلال وأبهة — وهى الجبة التى أهديت
اليوم — فهناك كان يأخذ الغضب منى مأخذه . فأوسعهم
لكما وضرباً ولكراً ، لا أعرف ولا أبالى أين تقع ضرباتى
منهم . ثم ينصرفون وهم يعولون ويتعجبون ، والدم يجرى
من أنوفهم مدراراً ، ولا يكاد الواحد منهم أن ينجو من وابل
الضرب واللطم إلا بشق النفس .

« بعد ذلك جعلت أكبر وتزداد سنى ، فيزداد ما أكابده
من والدى وما أعانى . إذ كان يجعلنى غرضاً للسهم التى يريد
أن يرمى بها الغير . فكلما لقي فى مجلس المدينة عتناً أحفظه ،
كنت أنا الذى أدفع الثمن لما لاقاه من زملائه من نزاع ودسائس .
حتى لقد كنت أنت تأسين لى وترثين لما أعانى .

« ولقد كنت محتملاً لهذا كله ، مستشعراً أبداً أن للآباء
علينا حرمةً وفضلاً ، إذ ليس همُّهم من الحياة إلا أن يكثروا
الجمع والاقتناء من أجلنا ، ولقد يزهدون فى كثير من متاع
هذه الحياة كي يدخروه لنا معشر الأبناء . . لكننى —
وياللاسف — لا أرى السعادة كل السعادة فى هذا الجمع فى
الحاضر لكى نَنعمَ به فى المستقبل . . أجل لست أرى السعادة
فى تكديس المال : كُدْساً على كدس ، والأرض : فداناً
إلى فدان ، مهما حسُنت شكلاً ومنظراً . . لأن الوالد فى
أثناء هذا كله تتقدم به السن ، والأبناء يكبرون . وليس لهم
من نعيم يَوْمِهِم نصيب ، والمستقبل أبداً يَوْمُهُم ويُنصِبُهُم .
« أنظرى إلى ما يحيط بنا من هذه المزارع الوافرة . وإلى
هذه الكروم والحدائق ، من ورائها الأجران والاصطبلات ،

وكلها مرصوفة منسقة ، المتاع يلي المتاع . فما أبدعها جميعاً
وما أكثر خيرها !

« ثم انظرى بعد هذا إلى طرف الدار ، وإلى حجرى
الملتصقة بالسقف ، والتي تبدو لنا نافذتها من هنا ! تعود الآن
إلى خاطرى ذكري ليالٍ قضيتها هناك ، انتظر طلوع القمر
فى الليل ، وبزوغ الشمس فى الصباح ، مكثفاً بساعات قلائل
من النوم الصحيح العميق . . كنت أنظر حولي فأحس
الوحدة ، ولا أرى فى الحجرات أو فى فناء الدار ، أو فى
الحديقة المزهرة والحقول المنبسطة فوق الكشبان . لا أجد فى
هذا كله إلا خلاءً مجذباً قفراً . وأظننى أصبحت تُعوزنى الحليلة ! »
فردت الأم بتعقل وفهم وقالت : « ان والدك ووالدتك لأشد
رغبة منك فى أن تتخذ لك شريكة فى الحياة ، فتصبح أيامك
ولياليك ناعمة راضية . ولطالما حاولنا اقناعك بأن تختار لك
فتاة ، بل لقد دفعناك إلى ذلك دفعاً . بيد أنى لست أجهل أنه
إذا لم تأذن الساعة . أو إذا لم تظهر الفتاة المنشودة ، فقد يلبث
الاختيار مُعلّقاً زمناً طويلاً . فيسوفُ المرء ويوجل ، خشية
أن يسيء الاختيار .

« لكن قلبي يحدثني بأنك قد اخترت وقضى الأمر . وكأنني
أرى قلبك قد شُغِفَ ، فبات أكثر إحساساً مما عهدناه .
إذن اصْدُقْنِي الخبز الآن . فان نفسي قد أحسَّت الحقيقة منذ
حين . إن التي اخترتها هي تلك الفتاة الشريرة . »

فأجاب الفتى بحماس : « لقد أصبتِ يأمأه ! إنَّها هي .
ولئن لم يُتَحَ لي أن أصطحبها اليوم إلى دارنا عروساً وزوجاً ،
فإنها ستمضي في طريقها ، وقد تختفي فلا أراها بعد اليوم ،
بسبب هذه الحرب الضروس ، وما هم فيه من حل وترحال
وأسفار . ولئن فقدتها ، فستغدو هباءً كل هذه الثروة ،
وهباءً ماتأني به السنون المقبلة من خيرات ، والدار التي أسكن
والحديقة الغناء سوف تنبو عنهما نفسي . بل وأنت أيها الأم
العزيرة لن تجدى إلى تسليتي سيلاً . لأن الحب ، حين يُوثَق
رباطه ، يحل عقدة كل رباط آخر . وليست البنت وحدها
هي التي تهجر والديها من أجل الرجل الذي اختارته وارتضته .
بل كذلك الفتى ينسى أباه وأمه إذ يرى الفتاة التي اختصها
بالحب تتوارى عن عينيه .

« فدعيني الآن انطلق إلى حيث يقذف بي اليأس . فقد

قال والدى فى هذا الأمر كلمته القاطعة ، وهيهات أن تكون
داره بعد اليوم دارى ، مادام يأتى أن تدخلها الفتاة التى أهوى
من بين سائر النساء .»

فأجابته الأم على الفور : « ما أشبه الرجلين المتخاصمين
بالصخرة تواجه الصخرة ! كلاهما قد امتلأ جموداً وكبراً .
ولا يريد أن يقترب من الآخر قيد أنملة . أو أن يحرك
لسانه بكلمة طيبة تلقاء الآخر . لكنى على رغم هذا لا يزال فى
صدرى بارق أمل بأن أباك سيزوجك منها مادامت على شىء
كثير من الأمانة والصلاح ، برغم ضيق ذات يدها ، وبرغم كل
الذى قاله اليوم من أنه ييغض مصاهرة الفقراء . فانه كثيراً
ما يقول فى حديثه المألوفة عبارات لا ينفذ منها حرفاً . بل
كثيراً ما يقبل الشئ الذى كان يرفضه ويأباه . وكل ما هنالك
أنه يحب أن يقال له كلمة طيبة ، وهو لعمري جدير بهذا
لأنه السيد الوالد . . . »

« ونحن جميعاً نعلم أن غضبه هذا ، الذى يشور من بعد
المائدة ، ليس بشئ ذى خطر ، فهو يتكلم بشدة وبغنف . وقد
أثار النبيذ حفيظته . وأهاج كل قواه . فبات لا يحس ولا يسمع

غير صوت نفسه ، ويأبى الانصات إلى ما يقوله سواه . لكن
الآن قد اقترب المساء ، وقد دار بينه وبين صديقيه أحاديث
شتى : ولا تكاد تذهب عنه حدة الخمر حتى يعود أكثر هدوءاً
وحلماً ، ويحس أثر الظلم الذى أنزله بغيره .

« فلم بنا الآن ، ولنحاول أن نعمل الذى نستطيعه ، دون
أن نضيع لحظة : وما ينجح فى الحياة إلا الاقدام والمغامرة .
ونحن فى حاجة إلى مساعدة الصديقين اللذين يجالسانه الآن .
وسيكون لنا القس الكريم خير نصير . »

ثم نهضت الأم واقفة ، وانهرضت ابنها من مقعده . فقام
يمشى خلفها طائعاً . وسارا كلاهما صامتين ، ينعان الفكر فيما
ينويان أن يفعلاه .

....

النشيد الخامس

POLYHYMNIA پوليهمنيا

(الرنة الاناسيم الربية)

رجل الدنيا ^(١)

كان الأصدقاء الثلاثة : القسيس والصيدلى وصاحب
الفندق ، جلوساً بعدد ، يتجاذبون أطراف الحديث ، الذى لم
يتغير موضوعه ، وإن كانوا قد قلبوه على وجوهه جميعاً .
وأخيراً قال القسيس الكريم الخصال : « لست أبغى معارضتكما
فيما ذكرتما . بل إنى مُقِرٌّ بأن الانسان يجب أن يشد
الأحسن : ونحن نراه فى الواقع يبتغى الأسنى من الامور ،
أو على الأقل يبتغى الجديد . لكن يجب ألا تغلوا . فان

(١) عنوان هذا النشيد رجل الدنيا : أى الرجل الذى اتخذ الدنيا كلها له وطناً
لا يفرق بين الافطار والاجناس . ولعل هذا إشارة للقسيس . وهناك مقابلة بين
رجل الدنيا Cosmopolite ، وبين البورجوا ساكن المدينة المذكور فى فصل سابق .

الطبيعة قد أضافت الى هذا أن حَبَبَتْ الى الانسان الحرص
على القديم ، والتَّسَعَّم بالشئ الذى أَلْفَهُ واعتاده زمناً طويلاً .
وكل حال للمرء طيبة مادامت تستند على أساس من الطبيعة
والعقل ..

« إن الانسان كثيرة رغباته ، لكن حاجاته قليلة . والعمر
قصير المدى ، وحياة ابن الفناء محدودة . ولست بلائى يوماً
ذلك الرجل ، الذى أراه أبداً مُنْدَفِعاً قَلْباً ، يحوم ويحول ،
ويركب البحار ، ويجوب سائر الأقطار ، فى هياج دائم وحماس .
ثم يفرح ويطرب إذ يرى المال يتراكم حوله وحول ذوى
قرباه . ولكنى أرى واجباً على أيضاً أن أُقَدِّرَ كل التقدير
ذلك الرجل من أهل المدينة ، الذى تلقاه هادئاً ساكناً ،
يتفقد باهتمام الارث الذى آل اليه عن أبيه ، ويعنى بالارض
وبزراعتها فى كل موسم : ليس بالرجل الذى يبدلُ أرضه
ودياره كل عام ، فهو يعلم أن الشجرة التى غرست حديثاً لن
تسرع فتُرسل نحو السماء فروعاً مجللة بالزهر ، وأن لا بد له
من الصبر والأناة ، وكذلك لا بد له من فكر طاهر هادئ
رزين ، ومن فهمٍ للأُمور على حقيقتها ، فهو لا يُلقى فى

الأرض الخصبية إلا القليل من البذور ، ولا يقتنى من الماشية إلا القليل ، الذى يستطيع رعايته والعناية بنتاجه ، فهو يقصر همه على ما يستطيع أن ينهض به .

« وسعيد » ، لعمري ، ذلك الرجل الذى منحته الطبيعة هذه الدقة فى الخلق ، فان مثله هو الذى يُغذّينا جميعاً ، ولنعم ساكن المدينة الصغيرة إذ يجمع بين حرقة أهل المدن وحرقة أهل الريف ! فثله لا يحس ذلك العبء الذى ينوء بكاهل الفلاح : ولا تزججه الهموم التى تنغص عيش سكان المدينة ، الكشيري المطامع ، الذين يريدون أبداً — وعلى الأخص نساؤهم وبناتهم — أن يقتدوا بمن هم أكثر مالا وأعلى مرتبة .

« لهذا وجب عليك أن تحمد لفتاك مجهوده الهادى ، وأن تبارك الفتاة ، التى سيختارها زوجاً له يوماً ما . »

وحين بلغ القسيس هذا الموضوع من حديثه ، دخلت الأم وابنها ، وقد قبضت على ذراعه ، ووقفت به بين يدي أبيه وقالت : « كم مرة أيها الوالد . كنا نفكر ، ونحن نتحدث ،

في ذلك اليوم السعيد ، الذي لا بد أن يأتي : يوم يختار هرمن
عروسه فيدخل السرور الى قلبنا جميعاً ! ولقد كنا نتذاكر
هذا الأمر غير مرة ؛ وكنا نشير عليه أحياناً بهذى وأحياناً
بتلك : كدأب الوالدين إذ يتحادثان . والآن اقرب ذلك
اليوم : وسأقت المقادير اليه العروس وأرثها لعينييه . وقد
علّقها قلبه ، واستقر عليها رأيه . ألم ندع له من قبل أن يختار
التي يهواها ويرتاح اليها ؟ والآن دنت الساعة ، فلقد أحب
واختار وصحت عزيمته على بلوغ ما يريد . والتي اختارها هي
تلك الغريبة التي لقيها اليوم ، فأعطه إياها : وإلا فقد أقسم أن
يبقى حياته أعزب . »

وقال الفتى : « أجل ! هبني إياها يا أبتى ! إن قلبي اختار
بصفاء وإيمان ؛ وهي أجدر النساء بأن تكون ابنة لك . »

صمت الوالد ولم ينس بكلمة : فنفض القسيس قائماً وقال
« إن اللحظة السانحة هي وحدها التي تتحكم في حياة الانسان وفي
مصيره ومآله . وكل عزيمة للمرء ، مهما طال فيها تفكيره
وتدبيره ، فانها في النهاية وليدة اللحظة التي يقطع فيها برأى
وسرعان ما يقطع الحكيم بالرأى الصواب . »

« وانه لمن الخطر ، عند الحكم والاختيار ، أن يدخل
المرء في الأمور ما ليس منها . فيحار اللب ، ويضل الفكر .
» ان هرمن قى ثاقب النظر ، وانى لأعرفه منذ الحداثة .
ما كان يوما من طباعه — حتى وهو صبي — أن يديده الى هذا
والى ذاك . وما كان يطلب غير الذى يحتاجه ، ثم يحتفظ به
ويحرص عليه .

« فلا تأخذكم الحيرة والدهشة الآن ، لأن الحادث الذى
كنتم ترجونه منذ عهد بعيد قد حدث فجأة ! حقيقة ليس
للحادث ، فى الظاهر ، ذلك الشكل الذى كنتم تتمنونه . لكن
هذه الامانى نفسها كثيرا ما تحجب عنا الشئ الذى تمناه .
وإنما تنزل الهبات علينا من السماء فى ثوبها هى ، وفى شكلها .
فلا تنكروا هذه الفتاة التى تحرك لها ، لأول مرة ، قلب ولدكم
العزیز وهو ذلك الفتى الطاهر العاقل .

« وأسعد بذلك الرجل ، الذى تمد اليه حبيبته الأولى
يدها ، فلا ينقلب حبه شجنا يضيويه ويضنيه . ولعمري انى لأنظر
إليه الآن ، فأدرك أن حظه قد تقرر . إن الحب الصحيح سرعان
ما يستحيل به الشاب رجلا رشيدا . وانى لآلمح فى وجهه العزم

الذى لا يثنى عما يروم . ولئن أبيت عليه هذا فقد قضيت عليه
بأن يلبث بقية الحياة — وفيها أبهى سنى العمر — رهين الحزن
والسكابة . »

لم يكد القسيس أن ينتهى حتى تكلم الصيدلى، وكان طوال
هذه الفترة يهم بالكلام ، فلا يملك نفسه إلا بجهد وعناء . قال
وهو يمعن فى التفكير: « رويدا ! تعالوا نسلك هذه الكرة أيضا
طريقا وسطا . ولنتعجل مع التريث ! ذاك كان شعار القيصر
أغسطس نفسه . وأنا بودى أن أقوم بخدمة جيرانى الأعزاء ؛
وأن أستخدم فى هذا كل مالدئى من ذكائى قليل وفهم
ضئيل . والشباب ، على الأخص ، فى حاجة إلى من يرشده
ويهديه . فدعونى أنطلق الآن لى أخبر الفتاة . وأسأل
عنها المجتمع الذى يعرفها والذى تعيش فيه . ولست بالذى
يسهل خداعه . وأعرف كيف أنقذ ما يقال لى ، فأطرح
منه الزائف . »

فقال الفتى : « نعم ما تصنع أيها الجار ! فاذهب واستطلع
ما شئت من الأنباء ! وَوَدَدْتُ لو أنك استصحبته معك
مولانا القسيس ، فإن رجلين جليلين مثلكما . هما من أعدل

الشهود الذين لا يُتَّهَمون . ويا أبقى ماهذه الفتاة من النساء
اللاتى يَجْبُنُ الآفاق فى طلب المغامرات ، لكى توقعن فى
حياتهن أغرار الشباب ، بالحيل والأكاذيب . كلا بل إن
هذه الحرب الضروس ، التى مزقت العالم كل ممزق ، ودكت
المغانى والمعاقل ، أجل هذه الحرب الشعواء هى التى شرَّدت
هذه المسكينة . ألسنا اليوم نرى رأى العين كرام الرجال
تحت كل شكل البؤس والشقاء ؟ ألسنا نرى الأمراء يلوذون
بالهرب متنكرين ، والملوك يعيشون فى منفاهم طريدين ؟
وكذلك هى ، وهى زين نساء العالمين ، قد أخرجت من ديارها
فتناست ما هى فيه من محنة وبلية . وجعلت تقوم بأود
الآخرين . فباتت قادرةً فى ساعة العجز ، معوّاةً حين
انقطع كل عون .

لقد عم الأرض حزن هائل ، وشقاء شامل : فهلا نشأ
وسط هذه النِّقَمِ نعمة واحدة ؟ هلاً أتيح لى أن أضُمَّ
عروسى ، وهى تلك المرأة الأمانةُ ، إلى صدرى ، فيكون
لى وسط هذه الحرب سرورٌ ونعيم ، كما كان لكما من قبل
وسط الحريق الهائل ؟ »

هنالك لم يتمالك الوالد أن فتح فاه وقال : « ليت شعرى ،
كيف انحلت عقدة لسانك أيها الفتى ، بعد أن كان قابعاً في فمك
طوال هذه السنين ، لا يتحرك إلا بجهد وعناء ؟ فهل كُتِبَ
لى أن أقاسى اليومَ ذلك الخطب الأليم الذى يتهدد الآباء
طُرّاً : إذ تميل الأمُ ميلاً لا ينباها ، وتناصره وتوازره فى
رغبته المُلحّة وارادته العنيفة : ثم ينحاز اليهما الجار بعد
الجار : وقد تحالفوا جميعاً على الوالد .

وأرأى أمسيت عاجزاً عن مقاومتكم جميعاً ، وماذا
تجدى المقاومة . فاقبلى أرى مُنذ الساعة ، روح العناد
والدموع والبكاء .

فاذهبا إذن واستطلعا الأنباء ! فان كانت تلك ارادة الله ،
فأحضرا الفتاة الى الدار ، وإلا فما على الفتى إلا التذرّع
بالنسيان والسُّلوان . »

فصاح الفتى فرحاً طروباً : « قبل غروب شمس هذا اليوم
ستكون ابنتك بين يديك : أجل وسُنعلم عليك بفتاة هى
أجل النساء ، وخير ما يمتنى المرء حزماً وعقلاً . وإنى لأرجو
أنها هى أيضاً ستنعلم بهذا وتسعد : بل وستشكر لى مدى

الدهر أن قد وجدت فيكما أبا وأماً يتمنى مثلهما أحسن
الأبناء وأعقلهم .

« ولن أضيع الآن لحظة أخرى ، بل أبادر فأعدّ المركبة
والجوادين ، ثم أحمل الصديقين الى موضع الحبيبة : واطرهما
هناك وحدهما . ليدبرا الأمر بما أوتيا من عقل وحكمة .
وإني أعدكم ، بل أقسم لكم ، أن أنزل بعد هذا على حكمهما .
وسأمتنع عن مقابلة الفتاة حتى تصبح لي خطباً . »

قال هذا وخرج عَجْلاً . وجعل الآخرون يُجمعون
أمرهم ، ويتدبرون الطريق التي يسلكونها في معالجة ذلك
الأمر الخطير .

ولم يضع هرمن لحظة : بل انطلق الى الأصطبل ، حيث
رأى الجوادين ، واقفين هادئين ، وهما يلتهمان أحسن الشعير
والدريس التهاماً : فألبس كلا منهما الشكيمة بين الفكّين ثم
أمر اللجم من الحلقات : وأحكم وضع السيور الطويلة
العريضة : واقتاد الجوادين إلى قناء الدار ، حيث هيا الخادم
المركبة وأعدّها : فدفع الجوادين برفق إلى عريش المركبة ،

وربطهما بأحكام الى عمدها . وتبوأ مقعد السائق والسوط
في يده . وسار بالمركبة الى باب الدار ؛ ولم يكد الصديقان
أن يجلسا في مقعدهما الرحيب ، حتى انطلقت تعدو بهم . ولم
تكن إلا لحظة حتى غادرت الطرق المرصوفة ، وزايلت المدينة
بأسوارها وأبراجها . وقد أخذ هرمن يسوقها تلقاء ذلك
الجسر المعهود ، وهو يركض بها ركضاً ، دون ريث ولا
مهمل ، سواء كان يجري صاعداً أم منحدرأ .
ولم يلبث أن لاح له برج القرية ؛ ومن ورائه دورها
المتفرقة تحيط بها الحدائق . عند ذلك أخذ يخفف من غلواء
الخيل ، ويهدى من سرعتها .



وكان أمام القرية مرج يكسوه بساط من العشب الندى .
تظله شجرات من الزيزفون ، شاحخة جليلة نبتت في مواضعها
هذه منذ زمن بعيد ؛ فثبت أصلها في الثرى . وامتدت الى السماء
فروعها . وكان هذا المرج ملعباً وملهى لأهل القرية ولما
جاورها من البلاد . وكان في وسطه بئر قد حفرت بين الدوح
في أرض منخفضة مطمئنة ؛ تنزل إليها بدرج فتلقى مقاعد من

الحجر مصفوفة حول ينبوع يتدفق منه الماء أبدا ، رائقا صافيا .
وقد أحيط بسور صغير ، بحيث يسهل الاستقاء من الحوض .
استقر رأى هرمن على أن يريح الجوادين في ظل هذا
الدوح . ففعل . وقال لصاحبيه : « انزلا الآن أيها الصديقان ،
واذهبا كي تعلما أن هذه الفتاة جديرة باليد التي أمد إليها . أما
أنا فما يداخلي في هذا ريب . ولن تنبتأي عنها بجديد . ولو كان
الأمركه بيدي لا نطلقت الى القرية ، وطلبت منها ان تتم
سعادتي بكلمات قلائل تفوه بها .

« أما أتما فلن تجدا صعوبة في معرفتهما من بين هذه الجماهير .
فمن الصعب أن يكون لغيرها ذلك القوام العالى . ومع هذا
فأنى واصف لكما من ثيابها النقية ما قد يرشدكما إليها : لقد
لبست قرطقا أحمر ، قد نجم من تحته ثدياها . وأحاطت
خصرها بنطاق اسود قد أحكمت شدة وجعلت فى لبة القميص
ثنائيا وطيات تحيط بجيدها المستدير كاطار بديع . وفى وجهها
البيضاوى تلحان الصراحة والهدوء . وشعرها مضافور
ذوائب عديدة على اسلاك من الفضة . ومن تحت النطاق
يتدلى مرطها الأزرق ، ذو الثنايا العديدة ويكاد يمس منها حين

تمشى عقيهما المليحين .

« لكن هنالك أمر أريد أن أسألكما إياه وألح عليكما في أن تجيئاني إليه : وهو ألا تخاطبا الفتاة ، ولا تدعاها تفهم ما تقصدان إليه . بل اكتفيا بسؤال الآخرين ، وأنصتا للذي يقولون . ومتى اجتمع لديكما من الانباء ما يهدي روع الأب والأم فارجعا إلى . لتتدبر ما نصنع بعد ذلك .

هذا هو الرأي الذي ارتأيت ونحن سائرون الى هنا . »
بعد أن ختم هرمن كلامه ، انطلق الصديقان الى القرية ، فاذا جماهير الناس قد احتشدت في الحدائق والدور . وفي مخازن الغلال . ولهم عجيج وضجيج ، وقد اكتظت الطرق بالمركبات بحيث تلاصق العجلة العجلة . فمن رجال تطعم الماشية وهي تخور ، والحيل وهي مربوطة الى المركبات . ومن نساء منهمكات في تحفيف ما غسلن من الثياب على سياج المنازل أو على الاسوار أو في أى مكان . الى أطفال يلعبون باللعب في مياه الجداول .

شق الصديقان في جهد طريقا وسط هذه المركبات . وجعلا ينظران يميناً ويساراً نظرات المستكشف المستطلع . لعل عيونهما

أن تقع على الفتاة التي وصفت لهما . فلم يجدا لها شيئا بين من ألفيا
من النساء . ولم يلبثا أن بلغا الى موضع اشتد به الزحام ، وقد
اجتمع حول المركبات رجال يختصمون . من حولهم نساء يصحن
ويُعلن . واقبل شيخ وقور مسرعا . واقرب من المختاصمين
فلم يكذبو ويشير اليهم إشارة الأمر حتى هدأت الضوضاء
وساد السكون . فصاح فيهم : « أما كفانا ما حل بنا من الشقاء حتى
صرنا عاجزين عن ان تفاهم فيما بيننا . وان تسامح ، ونغض
الطرف عما ما قد يرتكبه بعضنا من هفوات ؟ لقد يكون احدكم
وسط السعادة ، ضجرا متبرما ، سريع الغضب ، لكن ألم
يعلمكم وقع النوائب أن تكفوا عن النزاع والخصام ؟ أولى
لكم هنا . ونحن في ديار الغربة ، أن يسع الواحد منكم أخاه .
وأن تتقاسموا ما بأيديكم من رزق حتى تكونوا موضع العطف
والرعاية . »

فاه الشيخ بهذه الكلمات ، وقد انصت الجميع اليه . ثم
أخذوا في اصلاح مركباتهم ودوابهم : وقد لانت عريكاتهم ،
وهذا ثأرهم .

وسمع القسيس كلام الشيخ : فتبين في وجهه ملامح القاضي

العاقل الرزين، فتقدم اليه وخاطبه في جد قائل: «ان الشعب في زمن
الرخاء يعيش على البال. يتغذى مما تنتج أرض سخية واسعة. تخرج
له الهبات الشهية على مدى الشهور والسنين. هنالك يجري
كل شئ وفق المرام، فيحس كل امرئ في نفسه أنه فوق سائر
الناس فضلاً وعقلاً. وما دامت الأمور تجري في مجراها
فإن أحزم الناس وأذكاهم لا يلقى من التقدير أكثر مما يلقى سواه.
» ولكن اذا نزل الشقاء، فاضطربت لوقعه سبل الحياة.
وخرّبت المنازل والدور، وهلكت الحقائق والزروع. وسبق
الرجال والنساء من مسكنهم الأمين، وقذف بهم إلى العراء،
يختلف عليهم نهارٌ قاسٍ وليلٌ مخيف. فهناك ينظر الناس من
حولهم ليبحتوا عن أوفرهم عقلاً، وأعلاهم رأياً. الذي
يستطيع أن يكلمهم، فلا تذهب كلماته أدراج الرياح.

« قل لي يا والدي! إنك من غير شك القاضي الذي يحكم
بين هؤلاء الشريرين، ولهذا استطعت أن تهدئهم من غير
عناء! أجل وإني أراك شبيهاً بأولئك القادة، في العصور
القديمة، الذين كانوا يقودون رعاياهم الطريفة وسط الصحاري

والقفار (١) ، وكأني الآن إنما أخطب يوشع أو موسى .
 فأجاب القاضي وهو يلقي عليه نظرات حادة جادّة :
 « حقاً إن زماننا هذا ليشبه أغرب العصور التي حدثنا عنها
 التاريخ ؛ سواء أكان تاريخ دين أم تاريخ دنيا . وإن الذي
 عاش من الأمس الى اليوم فكأنما عاش عدة سنين ، لكثرة
 ما تعاقب من الحادثات في هذه الفترة القصيرة . أما اذا حاولتُ
 أن أذكر ما قبل ذلك بزمان قصير ؛ فاني يُسخيل لى أنى بت
 أحمل على كاهلى عبئاً ثقيلاً من السنين . وأعجب أن لم تزل فيّ
 بقية من القوة .

« أجل إننا نستطيع حقاً أن نقارن بين أنفسنا وبين ذلك
 الشعب (٢) ، الذي لاحت له النار المقدسة في ساعة المحنة .
 فكذلك نحن قد شاهدنا الروح القدس وسط السحاب
 والنيران . »

وكان القسيس يود أن يمضى فى حديثه مع القاضي ،

(١) أى مثل موسى عليه السلام حين قاد جموع بنى اسرائيل فى الصحراء ما بين
 مصر وفلسطين .

(٢) شعب بنى اسرائيل

ليستطلع أنباءه وأنباء قومه . فقال له رفيقه همساً : « امض
في حديثك مع القاضي ، وسق إليه حديث الفتاة : أما أنا
فسأطوف بالمكان قليلا ، باحثاً عنها : ثم أعود إليك بعد أن
أراها . » فأشار القسيس موافقاً : وانطلق الآخرين الأسوار
والحدائق ، مستطلعاً باحثاً .

....

النشيد السادس

كليو^(١) KLIO

(الهة التاريخ)

العصر

أخذ القسيس يسأل ذلك القاضي . الغريب الدار ، عما
قاسته الجماعة ، وعن الزمن الذي قضته في هذا التشرّد : فأجابته
الآخر : « إن آلامنا ليست بالشئ الحديث العهد ، فقد شربنا
صاب هذه السنين جميعاً ، وكان أشد المصائب وقعاً علينا أن
رأينا أبهى آمالنا وأحلاها تهدم وتتحطم . ومن ذا الذي
يستطيع أن ينكر أن نفسه أخذت تسمو وتعلو ، وأن صدره
الحر أخذ يخفق خفقاناً أشد طهرأ وصفاء . حينما أشرقت

(١) في هذا الفصل اشارات الى حوادث الثورة الفرنسية والى ما بعثت من الآمال
في النفوس وما خيبت من الرجاء . ولهذا فان اسم كليو إلهة التاريخ ملائم لهذا الفصل
كل الملازمة .

علينا الشمس الجديدة بأشعة براءة تسطع وتلمع ، وحينما
استهوى مسامعنا الكلام عن حقوق الانسان ، التي هي ملك
للناس جميعاً . وعن الحرية التي تعلو النفس ، وعن مبدأ
المساواة المجيد .

« هناك غدا كل يؤمل أن سيحييا حياته لنفسه (١) وكأنا
تلك السلاسل والأغلال ، التي قيدت بها الأنانية والكسل (٢)
الكثير من الأمم ، قد تكسرت أخيراً . . ألم تكن أنظار
الشعوب جميعاً متجهة في تلك الأيام المفعمة بالحوادث الى
عاصمة العالم (٣) ، التي استحققت هذا اللقب العظيم في ذلك
الوقت أكثر مما استحقته في أي عصر آخر ؟ ألم تكن أسماء
أولئك الرجال ، الذين كانوا أول من أذاعوا الرسالة ونشروها (٤)
تضارع أسماء أجل الناس قدراً ، ممن غدا لهم مكان بين
النجوم الزاهرة ؟ ثم ألم يكن أثر هذا كله أن بات كل انسان
يخس أن قد ارتقى : قلباً وروحاً ولساناً ؟

(١) يحيا من أجل نفسه لا من أجل الملوك والقسس والنبلاء .

(٢) الأنانية والكسل رمز للطبقات الحاكمة التي تسخر الشعب لخدمتها .

(٣) يريد باريس

(٤) أمثال ميرابو ولافايت .

ونحن الجيرة الاقربون (١) كنا أول من اشتعلت نار
 الحماس في نفوسهم . . . من بعد هذا دارت رحا القتال ،
 وجعلت كتائب الفرنسيين تزحف على ديارنا . ولكن كان
 يبدو لنا أنهم مقبلون علينا كأصدقاء . وهكذا ألقيناهم . فلقد
 كانوا جميعا ذوى نفوس عالية . فجعلوا يغرسون بيننا بهمة
 وعزيمة أشجار الحرية الياضعة . وأعلنوا أن كلاً له حقوقه المرموعة
 وحكومته التي يرضى ويختار . وقد طرب الجميع سرورا ، شبانا
 وكهولا . وجعلت حلقات الرقص تدور من حول الأعلام
 الجديدة . . وهكذا تمَّ لهؤلاء الفرنسيين اللبقيين اكتساب
 قلوب الرجال بهمتهم وعزيمتهم ، وقلوب النساء برشاقتهن التي
 لا تقاوم ، حتى لقد سهل علينا عبء الحرب على فداخته ، لأن
 الأمل كان يسدل دون المستقبل ستورا . فلا تقع أبصارنا الا
 على السبل الجديدة التي بين أيدينا .

« لقد تعلم أن الزمن الذي يقضيه العروس وخطبه ،
 يغشيان المراقص والملاعب ، وهما بانتظار يوم العرس . من
 أسعد الازمنة وأرغدها : لكن كان أسعد منه ألف مرة ذلك

(١) سكان الاقاليم الألمانية الملاصقة لفرنسا الواقعة غرب نهر الرين .

الزمن ، الذي كان المرء يرى فيه أن أقصى ما كان يطمح إليه
بصره ، بات قريب المنال جدا . فهناك انحلت عقده الألسنة ،
وأطلق الشيوخ والشبان للقول العنان ، معبرين عن كل فكر
سام وإحساس كريم (١) .

« لكن لم تلبث السماء أن غشيتها السحب ، ونهض جنس
فاسد ليقبض على زمام الحكم (٢) ، وهو عاجز عن أن يفعل
الخير ، فأخذ أفرادهم يذبح بعضهم بعضا ، ويستبدون
بجيرانهم وإخوانهم . وبعثوا إلينا شر ذمة من الأنانين الجشعين .
فأكب كبراؤهم على سلبنا كل شيء يستحق السلب ، وأكب
صغراؤهم على النهب ، فلم يدعوا حقيرا أو تافها الا استولوا
عليه . وما كان خوفهم إلا أن يسرفوا فلا يتركوا شيئا إلى الغد .
« فلم يمتز زمن طويل حتى حل بالناس الشقاء ، وفي كل
يوم يشتد بنا الظلم ويزداد . وكانوا في عنفوان عزهم ونصرهم ،
فلم نجد من ينصت إلى استغاثاتنا . فاستولى الغيظ والغضب

(١) إشارة إلى الذين تغنوا بمدح الثورة الفرنسية في أول عهدها من شعراء

الألمان أمثال كلوبستك Klopstock

(٢) إشارة إلى جماعة البعاقية

حتى على أعذب الناس روحا . واقسم الكل ليشَارَنَّ لما نزل
بالبلاد من العار ، ولتلك الآمال التي خابت خيبة مضاعفة .
وكان الجدُّ حايِف الألمان . فعاد الفرنسيون وارتدوا متقهقرين .
عند ذلك جعلنا ندرك حقيقة أهوال الحروب . فإن الجيش
الظافر المنتصر قد يبدى شيئا من الكرم والمجاملة ، أو على
الأقل ، يتظاهر بذلك . فلا يريد أن يبطش بالذين ظفر بهم ؛
بل يفضل أن يُبقى عليهم . وأن يستخدمهم كل يوم فينفع
بهم وبما ملكت أيديهم . أما المنهزم الهارب فلا يعرف شرعا
ولا عرفاً ، أقصى بغيته أن ينجو من الموت ، فهو يلتهم كل
ما يقع في يديه من غير تدبُّر ولا تبصُّر . وتطيش أحلامه
ويدفعه اليأس الى ارتكاب كل شئ ، فلا يرى لشيء قدسا
ولا حرمة . بل يسلب كل ما يقع تحت بصره . وتدفعه الشهوة
الوحشية لأن ينقض على النساء ، فتقلب لذاته فظاعة وإجراما
ويبضر الموت ماثلا أمامه في كل مكان ، فيعيش لحظاته
الأخيرة عيشة الوحوش الضارية . يسره أن يرى الدماء وأن
يسمع أنين المعذنين .

« هنالك جاشت برجالنا مراجل الغضب ، وأرادوا أن

يثاروا لما فقدوه وأن يدافعوا عما بقي. فحمل الجميع أسلحتهم،
وقد ازدادت شجاعتهم لما رأوه من سرعة فرار الهاربين،
ومن وجوههم الشاحبة، ونظراتهم الفرعة، فجعل ناقوس
الحرب يدق دقات متصلة لا تنقطع. ولم يهدئ من ثورة
غضبهم خوف الأخطار التي هم مقبلون عليها. ففي لحظة الطرف
انقلبت آلات الزراعة إلى أداة حرب، فاذا الأمشاط والمناجل
تقطر نجيعا، واذا الأعداء تتساقط أشلاؤهم بلا رافة ولا
رحمة. فأما الشجعان فكانوا يفتكون بهم جهاراً؛ وأما الجبناء
فيقتلون غيلة وخلسة. إن لأرجو ألا أرى بنى الإنسان في
مثل تلك الحال من الفوضى والانحطاط مرة أخرى. ولمنظر
الوحش الضارى خير من منظرهم.

« فعلام إذن كل هذا الكلام عن الحرية كأنما الناس
قادرون حقاً أن يحكموا أنفسهم؟ انهم لا يكادون أن يُرعى
لهم العنان، وتزول من أمامهم العقبات. حتى تظهر فيهم الغرائز
الدينية، ويختفى العدل والانصاف في الزوايا والأركان. »
فقال القسيس: « أيها الرجل الجليل! لست بلأئتمك على
إنكارك لبنى الإنسان، بعد الذى عانيته من شرورهم، وما

ارتكبه من تدمير وتخريب . على أنك لو ألقيت نظرة أخرى
على تلك الأيام الحزينة ، فانك واجد فيها من غير شك كثيرا
من صالح الأمور ؛ وكثيرا من جليل المشاعر : التي كانت
كامنة في أعماق القلوب حتى أثارها وقع الخطوب . فاذا الشقاء
الداهم والخطر المحقق يظهران للإنسان في صورة الملك ،
وإذا هو لآخرين بمثابة إله يرعاهم ويحميهم . »

فتبسم الشيخ القاضي ضاحكا وقال : انك تذكرني تذكر
الحكيم العاقل : كما يذكرون صاحب دار اشتعلت بها النيران
فدمرتها ، فيذكرونه بما فيها من الذهب والفضة ، مما قد أذا به
النار ، ولبث مبعثرا بين أنقاض الدار . وفي الحق إنه لتزُرُّ
يسير ، لكنه على قلبه ثمين . فيحفر المسكين باحثا عنه ، ويفرح
لما قد يجده منه . وأنا كذلك أرجع بأفكاري مسرورا إلى
تلك الأعمال الطيبة القليلة ، التي لم تزل تعيها الذاكرة .

« أجل لست بمسكرا أني شاهدت الذين بينهم عداوة ينسون
عداوتهم ، كي يتعاونوا على انقاذ المدينة من براثن الشقاء .
ورأيت كيف تنهض الصداقة وحب الأبناء والآباء فتأتي بما
قد يعد ضربا من المحال . وأبصرت كيف ينقلب الشباب

رجلا في لمحة الطرف ، والشيخ اليقن يحول قتي يافعا .
بل ورأيت الطفل يعود شابا ، وذلك الجنس . الذي أُلْفنا أن
نعمته بالضعف . قد راح يبدى من البسالة والبأس ما يشير
الاعجاب .

«ولأفص عليك أولا ذلك العمل الجميل ، الذي قامت به
فتاة كريمة من خيرة العذارى : تخلفت هذه الفتاة في مزرعة
كبيرة ومعها كثير من الفتيات . وقد ذهب الرجال جميعا
لحاربة الأعداء . وبينما هن كذلك أغارت على المزرعة
شرذمة من أراذل الناس . فنهبوا المزرعة ثم دخلوا على
النساء الدار . فرأوا تلك الحسناء وقوامها المعتدل ، والفتيات
الأخريات ، وهن أحق بأن يُدَّعَيْن طفلات . فتملكتهن
الشهوة الوحشية . واندفعوا يريدون مهاجمة الصغيرات
وهن يرتعدن فرقا . والغادة الباسلة . لكنها لم تلبث أن انتزعت
من جانب أحدهم سيفا وأجهزت عليه بضربة عنيفة فخر
تحت قدميها مضرجا بدمائه . . ثم لم تزل تضربهم ضربات
الرجل القوي حتى كفت أخواتها شرهم : ولاذ اللصوص
بالهرب . بعد أن جرحت منهم أربعة . بعد ذلك أغلقت الدار .

وبقيت والسلاح في يدها تنتظر المدد . »

حين سمع القسيس هذا الأطراء لتلك الفتاة ، داخل قلبه
الآمل من أجل صديقه . وهم بالسؤال عن مصيرها ، وعمما
إذا كانت وسط هذا الجمع الغفير من اللاجئين . لكن في تلك
اللحظة دخل الصيدلي مسرعا ، وجذب القسيس من رداءه
وقال له همساً : « قد عرفت الفتاة بعد لآي ، من بين
مئات من النساء . وهي كما وصفت لنا تماما . فتعال معي كي
تراها رأي العين . وليصحبنا هذا القاضي ليستطلع منه بقية
أخبارها . » والتفتا فإذا القاضي قد استدعاه قومه ليستفتوه
في شئونهم ويهتدوا بهديه .

وبرغم هذا سار القسيس وراء الصيدلي حتى بلغا إلى فجوة
في السياج ، فقال هذا وهو يشير بيده : « أنظرها هي الفتاة !
سرعان ما عرفت كيف تلف المولود لفأ محكما . وأنا أذكر
تماماً القطن القديم . وغطاء الوسادة الأزرق . وهذا كله
نما كان في حقيبة هرمن ، وقد أحسنت إذ أحكمت تحويل
تلك الهدايا بسرعة إلى حالتها الجديدة . وهذه دلائل على
الفتاة لا تقبل الشك . والصفات الأخرى واضحة أيضاً كل

الوضوح . فهناك القرطوق الأحمر ، يستر صدرأقد نجم ، وهاك
النطاق الأسود قد أحكمت عقده حول خصرها . وقد جعلت
فى لبة القميص ثنايا وطيات بديعة تحيط بجيدها المستدير
كأطار جميل . وفى وجهها اليساوى تلح الصراحة والهدوء
وشعرها مضافور صفائر عديدة على أسلاك من الفضة . وبرغم
أنها جالسة فإننا نستطيع أن تبين قدها الممشوق ، وهو ذامرطها
الأزرق ، ذو الثنايا العديدة ، يلفها من خصرها الى عقيها
المستديرين .

هذه هى من غير شك ، فتعال نستفسر عنها لنعلم هل هى
ذات فضل وفضيلة وهل تحسن إدارة المنزل . »

فجعل القسيس يختبر الفتاة بثاقب نظره . ثم قال :
« لعمري ليس بعجيب أن قد خلبت الفتى وسحرته . فان عين
الناقد الخبير لاتقع منها إلا على كل ما يعجب : سعيد من منحه
الطبيعة الجمال الكامل . فبات محبوباً حيثما نزل ، ولن يكون
غريباً ، مهما نبّت به الدار . إذ يود الكل أن يقترب منه ،
وأن يلبث بقربه زمناً طويلاً . ولئن صاحب جمال الخلق
هذا حسن الخلق ، فاني أؤكد لك أن فتانا ههنا قد أصاب

عروساً ستملاً أيام حياته سعادةً ونعيمًا . وستقف مخلصه
وفية الى جانبه في كل حين . وأكبر ظنى أن هذا الجسم
الكامل لا ينطوى إلا على روح طاهرة . وهذا الشباب
القوى سيفضى على مدى السنين إلى شيخوخة سعيدة .

فأجاب الصيدلى وهو يمعن في التفكير : « رغم هذا ،
كثيراً ما يخدع المظهر . وأنا لا أريد أن أثق بما قد يبدو للعين .
وكثيراً ما جربت صحة المثل القائل : « لا تركز الى صديقك
الجديد كل الركون قبل أن تعلق وإياه صاعاً من الملح (١) .
فالزمن وحده كفيل أن يريك مبلغ صداقته ، ومنزلتك
عنده . دعنا إذن نستطلع أمرها من أناس صالحين يعرفونها ،
ويستطيعون أن يقصوا علينا من سيرتها شيئاً . »

فقال القسيس : « وأنا أيضاً أفضل سلوك طريق الحذر ،
فنحن لا نخطب الفتاة لنفسنا ، واختيار فتاة من أجل صديق
أمر يتطلب التروى . »

ثم انطلقا نحو القاضى الهام ، وكان يسير تلقاهم .
منشغلاً بما لديه من الأعمال . فأقبل عليه القسيس العاقل ،

(١) كناية عن تجربته في الشدة .

وتسكلم اليه محترساً ، فقال : « إنارأينا فى الحديقة المجاورة فتاة جالسة تحت شجرة تفاح ، تصنع لطفل رضيع ثياباً من قطعة قطن قديمة لعلها أهديت اليها . وقد أعجبنا قوامها المعتدل وما يبدو عليها من الجرأة والبسالة ؟ فحدثنا بما تعلمه عنها . وما سألناك إلا عن نية طيبة . »

فتقدم القاضى قليلا لينظر الى الحديقة ثم قال : « إنى عرفتك أمر هذه الفتاة من قبل ، حين قصصت عليك ذلك العمل المجيد الذى قامت به هذه العذراء بعينها . حين استلت السيف ودافعت عن نفسها وعن صواحبها . أجل هذه هى . لا تكاد تلقى عليها نظرة حتى ترى ما وهبتها الطبيعة من قوة . وهى على قوة جسمها طيبة القلب . فقد كانت تعول شيخا هرما من أقاربها ، فلم تزل تعنى بأمره حتى تخرمته المنون وقد أودى به حزنه على المدينة ، وما نزل بها من البلاء . وما يتهدد ثروته من الأخطار .

« وكذلك قابلت بهدوء وجلد كارثة أخرى نزلت بها إذ فقدت خطيبها وهو قى ذو إباء وشمم . اشتعلت فى نفسه نار الحماسة من أجل المبادئ السامية الأولى ، وأراد أن يجاهد

بنفسه فى سبيل الحرية . فذهب الى باريس . ولم يلبث هناك
طويلا حتى قتل قتلة شنيعة . وهو يقاوم الاستبداد
والدسائس كما كان يفعل فى بلده . »

فلما أتم القاضى حديثه شكره الصديقان ، واستأذناه فى
الانصراف ، وأخرج رجل الدين قطعة من الذهب (وقد انفق
منذ سويعات كل ما بالكيس من قطع الفضة ، اذ كان يعطى
جماهير اللاجئين كلما مروا به) وقدمها الى القاضى وقال :
« تفضل بتقسيم هذا الشئ الزهيد بين المحتاجين ، وبارك الله
فى هذه الهبة ! » .

فأبى القاضى أن يأخذها منه وقال : « لقد استطعنا أن
تنجو بشئ من النقود وبكثير من الثياب والأمتعة ، وانى لآمل
أن نرجع الى أوطاننا ، قبل أن ينفد ما بأيدينا . »

لكن القسيس أجابه وهو يضع القطعة فى يده : « أجدر
بكل انسان فى هذا الزمن ألا يحجم عن العطاء ، وأجدر بكل
ألا يرد ما يُقدَّم اليه عن سماحة . فما يدرى أحد فى يده اليوم
شئ ، الى متى يبقى الذى بيده . وما يدرى أحد اليوم كم يطول
به السير والطواف فى ديار الغرب ، مقصي عن المزارع

والحدائق التي كانت تؤويه وتغذيه . »

وقال الصيدلى ، وكأنما أهمية الأمر : « أجل لعمري
ولو كان فى جيبى نقود لمنحتك إياها : كبيرة وصغيرة ؛ إذ لا شك
عندى أن فى عشيرتك من هم فى حاجة إليها . ومع هذا فانى
لن أتركك تمضى من غير هبة أهبك إياها ، حتى ترى نيتى الطيبة ،
ولو أن الصنيع دون النية بكثير . »

ثم أخرج من جيبه كيسا من الجلد المطرز كان يحفظ
فيه مالديه من التبغ ، وجعل يفتحه بتدقيق وتمهل . فإذا فيه
ما يكفى لماء (بيبات) قلائل . فقدمه الى القاضى وهو يقول :
« إن الهبة لعمري قليلة . » فرد الآخر بأن المسافر يرحب أبدا
بما يقدم اليه من جيد التبغ .

فأخذ الصيدلى يمدح تبغه ويثنى عليه . لكن القسيس لم يدعه
يطيل ، بل اجتذبه وابتعدا عن القاضى . وقال له : « أسرع
بنا فان الفتى ينتظرنا فى قلق . ويجب أن نسمعه النبأ السار
بأسرع ما يمكن . »

فانطلقا مسرعين حتى اذا كانا على مقربة من الشاب ، ألفياه
متسكئا على مركبته تحت شجرة زيزفون ، وقد جعلت الخيل

تضرب العشب بسنابكها . وهو ممسك بلجمها وممعن في التفكير .
وكان ينظر أمامه بعيداً ، فلم يحس قدوم الصديقين ، حتى نادياه
حين اقتربا ، وأشارا إليه اشارات سارة . وكان الصيدلى قد
شرع يخاطبه من بعيد . ولكنهما لم يلبثا أن وصلا إليه . وعند
ذلك أمسك القسيس بيد الفتى وسبق زميله الى الكلام فقال :
« سعد جدك أيها الفتى ! إن عينك الطاهرة وقلبك الخالص
قد أحسنا الاختيار . فلتسعد ولتسعد بك حليمة شبابك . وهى
لعمرى جديرة بك حقاً . فتعال اذن وأعد المركبة ، ولنعد الى
القرية راكبين ، وهنالك فلنخطبها ثم نذهب بها الى الدار . »
كان الفتى منصتاً الى كلمات الرسول ، وبرغم أنها عبارات
سماوية مقدسة وباعثة للأمل . لم تبد على وجهه علامات
السرور ، بل تنهد من أعماق صدره وقال : « لقد أتينا الى
هنا على عجل ، ولكنى أخشى أن سنركب الى دارنا فى شئ
من القشل ، فارجع متباطئين . لقد أخذت الهموم تملأ قلبى
وأنا انتظر كماها هنا . وأخذ يستحوذ على اليأس والقلق وكل ما يضى
أفئدة المحبين . فهل تحسبان أن مجرد ذهابنا الى هناك كافٍ لأن
تقبل الفتاة علينا وتتبعنا ، لأننا نحن ذوو يسار ، أماهى فتعانى الفاقة

والتشرد . لكن الفقر نفسه - ان أصاب غير أهله - يبعث
في النفس الشمم والكبرياء . وهذه الفتاة جمة النشاط . وقد
تدرعت بالثقافة . وبهذين السلاحين يصبح العالم في قبضة يدها .
ثم أتخسبان أن يكون لامرأة مثل هذا الجمال والكمال :
فلا يفتن بها الشباب ويهيم بها ؟ أتظنان أنها أغلقت قلبها حتى
الساعة . فلم ينفذ اليه حبٌ بعد ؟ أولى لنا إذن ألا نركب الى
هناك . بل نعود ساحيين ثياب الخجل . را كيين على مهل الى
الدار . فاني لأخشى أن بعض الفتيان قد استحوذ على قلبها
ويدها . وأنها أقسمت له يمين الاخلاص . فأى اضطراب
سيعروني اذا وقفت بين يديها في مثل تلك الحال ؟ »

هم القسيس أن ينطق بكلمات يسليه بها ، لكن الصيدلي
بثرثرته المعهودة سبقه الى الكلام فقال : « في الأيام الخالية
لم يكن هذا الشيء مما يحيرنا . اذ كان لكل أمر ذي خطر نظامه
وطريقته . فبعد أن ينتقى الوالدان عروسا لفتاهما ، يرسلان
سرا في طلب أحد أصدقاء الأسرة . ويبعثن به الى والدي
العروس ليقوم بأمر الخطبة . فيادر هذا الصديق ، وقد أخذ
زينته كاملة في يوم الأحد ، وينتظر الى ما بعد الغداء بقليل ،

ثم يزور ذلك الرجل الجليل في داره . وهناك يتحدث اليه
بعبارات ودية عامة ، وهو يعلم كيف يحوّل مجرى الحديث
متى شاء ، فبعد كثير من اللف والدوران يجيء ذكر الفتاة
فيثنى عليها ، ثم يثنى على الأب . وعلى الأسرة التي أرسلته
اليوم . ثم تبادر منه كلمة حكيمة تشير الى الموضوع : ويلج السفير
العاقل ماهناك من حسن نية فيأخذ في الشرح والايضاح .
واذا افترضنا أنه لم يلق نجاحاً ولا توفيقاً ، فلن يكون في هذا
غضاضة . أما اذا تكلم مسعاه بالفوز ، فسيصبح لهذا الوسيط
المكان الأول في كل حفلة للأسرة . لأن العروسين يذكران
مدى العمر أن أول من عقد الرباط هو تلك اليد الماهرة :
يد الوسيط .

« أما الآن فان هذا أصبح كسائر العادات الصالحة ، يعد
خارجاً عن المألوف . وأصبح كلٌ وسيط نفسه ، فاذا رفضته
العروس ، فليتناول فشله بيده ، وليقف موقف المضطرب
الحائر أمام الفتاة . »

فقال الفتي ، ولم يسمع من كلام الصيدلي الا القليل : بل
كان يفكر حتى استقر رأيه على قرار حاسم : « مهما يكن

من أمر ، فاني ذاهب بنفسى لأعلم من فم الفتاة مصيبي
ومآلى . فان لى بهائقة قلبا وضع مثلها رجل فى امرأة . وأنا
أعلم علم اليقين أن كل ما نقوله حسن وحكيم . ولئن قدر لى
أن سيكون هذا اللقاء الأخير ، فاني أود رغم هذا أن أقابل
مرة أخرى تلك النظرات الصريحة من تلك العيون السوداء ؛
واذا لم يتح لى أن أضمرها الى قلبى ، فلا أقل من أن أشاهد
مرة أخرى ذلك الصدر وتلك الأعطاف ، التى يشتهى ذراعى
تطويقها ، أجل أريد أن أرى مرة أخرى ذلك الفم ، الذى
تسعدنى منه القبله وكلمه (نعم) مدى الحياة . والذى تشقىنى
منه كلمه (لا) مدى الحياة ،

« فدعاني إذن وحدى ! وما من داع إلى انتظارى .
بل أرجع الساعة الى الوالد والوالدة ، كي يعلما منكما أن
ابنهما لم يخطئ . وأن الفتاة جديرة بكل خير . فاتركاني وحدى
وسأعود مختصرا الطريق ، سالكا ذلك الممشى المنبسط
فوق الكشيب إلى شجرة الكمثرى ، ثم أمر من وسط الكرمة
حتى أصل الى دارنا .

« فهل يتاح لى أن أرجع مسرعا ومعى الحبيبة؟ أم أعود

فريدا وحيدا أجبر رجلى جرا في تلك الطريق ، ثم أدخل
الدار التي لن أدخلها منشرح الصدر أبدا ؟ .. »
قال هذا وناول اللجام القسيس . فأمسكه هذا إمساك
الخبير ، كإنحاً جماح الجوادين ، وقد علا أشدا قهبا الزبد . ثم
صعد المركبة مسرعا ، وجلس في مكان السائق .

لكن رفيقه الحازم ، المتبصر في العواقب ، جعل يتردد
ويقول : « إني أيها الصديق أأتمنك على نفسي وروحي وعقلي ،
عن سرور ورضى . ولكن إخال أن الجسد والعظام ليست
في مأمن من عاديّات الزمان ، اذا كانت اليد المقدسة هي
القابضة على هذه اللجم الديوية الفانية . »

فقال له الآخر ، وهو يحاوره مبتسما : « ادخل الى المركبة
بسلام . وأتمنّ على جسدك وروحك على السواء ! كن مطمئنا ،
فان هذه اليد ألفت منذ عهد بعيد أن تقبض على اللجم ، والعين
قد مرّنت على سلوك أقوم الطرق . وقد تعلّمتنا في
استراسبورغ كيف نسوق المركبات ، حين ذهبنا إلى هناك في صحبة
ذلك البارون الصغير . (١) وفي كل يوم كنت أتولى قيادة

(١) كثيرا ما بدأ القسس حياتهم — خصوصا في الزمن الذي نحن بصددده —
كمؤدّين لأبناء الأشراف

المركبة ، فتمرق بنا من وسط الباب الكبير المرجع للصدى ،
وتعدو بنا في طريق تربة ، الى المروج ، والى الغابات البعيدة ،
وسط الجموع الغفيرة من الناس الذين لا عمل لهم غير التنزه
طول النهار . »

عند ذلك تجلد الصيدلى ، بعض الشيء . فصعد المركبة .
وجلس فيها جلسة الرجل الحازم المتأهب فى كل لحظة
للوثوب إلى الخارج .

وانطلق الجوادان تلقاء الدار . وبهما الى الاصطبل شوق .
فكان يتصاعد من تحت سنايبكهما سحب من العُشِيرِ المثار .
وقد وقف الفقى طويلا ، يحدق فى الغبار إذ يصعد . ثم
يتفرق فى الهواء ذرة ذرة . وهو تائه العقل حائر اللب .
لا يفكر فى شىء .

....

النشيد السابع

ايراتو ERATO

(الهة الغزل والفسيب)

دروتيه

لقد يقف ابن السبيل عند الغروب ، ينعم النظر في
ذكاء ، ثم يلقي عليها وهي آخذة في الاختفاء بسرعة نظرة
عجلى ، فلا يزال يرى صورتها تهتز وسط الأدغال القائمة .
وفوق الجنادل والصخور ؛ وحيثما اتجهت نظراته . فتمّ وجهها
يلمع مهتزا في ألوان بديعة . . . كذلك كان هرمن . فحيثما
نظر رأى صورة الغانية الفتاة تمر أمامه على مهل . وكأنما
تسير في الممر الضيق الذي يخترق مزرعة القمح .
لم يلبث أن أيقظ نفسه بعنف من هذه الرؤيا التي أدهشته .
ثم أدار وجهه نحو القرية ، فازدادت دهشته . إذ رأى القوام

العالى لئلك الفاتنة مقبلا نحوه . فأنعم النظر ، ورأى أن هذا لم يكن وهما . وأن هذه هى حقا . قد اقبلت وهى تحمل فى يديها جرتين : قد أمكست بقبضتيهما . وجعلت كبراهما فى الممين والصغرى فى اليسار . وهى تمشى بجهد ونشاط نحو الينبوع .

تقدم هر من نحوها مسرورا ؛ وقد بعث منظرها فى قلبه القوة والعزم . وخاطبها ، وقد تولاها شئ من الدهشة . فقال : « هأنذا ألقاك مرة أخرى . أيتها الغادة الباسلة ، دأبة على عمل جديد تساعدن به العاجزين وتحيين به النفوس الباسة . لكن حدثنى ! كيف قصدت وحدك الى هذا الينبوع على بعده . وأكثر من بالقريه يكتفون بما هنا لك من الماء ؟ ولوان هذا الماء حسن المذاق . مفضل على سواه ؛ وكأنى بك ستحملينه الى تلك المريضة . التى أنقذتها بما بذلت لها من رعاية وعناية . فحيته الفتاة أحسن تحية . وقالت : « لقد جوزيتُ أحسن الجزاء على أن قطعتُ كل هذا الطريق الى الينبوع ، بأن لاقيت الرجل الكريم ، الذى أمطر علينا الهبات ؛ وإن النفس لتسر لمراى المحسن ، كما يسرها منظر الاحسان . فتعال وانظر

بنفسك إلى الذين نَعِمُوا بما منحتهم ، وتلقَ منهم ، على صنيعةك ، أطيب الحمد والثناء .

وإنك لتراني وقد قطعت هذا الطريق ، لكي أعترف من هذا الينبوع الذي يتدفق منه الماء صافياً طهوراً . فما ذلك إلا لأن الناس باهمالهم قد كدروا كل ما بالقرية من ماء . وتركوا الخيل والشيران تخوض في الينبوع الذي يسقى القرية وأهلها . وكذلك لو تَوَّأ جميع الأحواض بما غسلوا وما رخصوا فيها . حتى لم تعد هنالك بئر واحدة نظيفة . لأن كل فرد لا يعنيه إلا أمر نفسه ، ويريد أن يقضى حاجته بسرعة ، من غير أن يكثر لحاجات الناس .»

ولم تكذبتم حديثها ، حتى أخذت تنزل الدرجات وهرمن إلى جانبها ؛ ثم جلسا ، كلاهما ، على الجدار الصغير حول الينبوع . وانحنى فوق الماء لتعترف منه . وأمسك هو بالجرة الأخرى ومال فوق الحوض ليغترف . فأبصر صورتيهما ، وقد ارتسمتا في زرقة السماء الصافية المنعكسة على صفحة الماء . وهنالك نظر إليهما ونظرت إليه ، وحياها وحيتة . ، في تلك المرأة الصافية المصقولة .

وقال لها ، وقد سر و طرب ، : « ناوليني شربة ! » فأمسكت
له جرتها حتى شرب . ثم استراحا قليلا وقد اتكأ كل منهما على
جرة : وقالت هي للصديق : « انى أراك هنا ، بعيدا عن
الموضع الذى قابلتك فيه ، بلا خيل ولا مركبة . فكيف
وصلت إلى هذا المكان ؟ »

فأطرق هرمن مفكرا ، ثم رفع رأسه ، وجعل يحقق فى
عينها ، بنظرات الصديق المخلص : فأحس كأنما قد عاد إلى
قلبه الهدوء والطمأنينة . ولكن كان يرى من المستحيل أن
يحدثها حديث الهوى . إذ لم يلمح فى نظراتها الحب ، بل العقل
والروية يأمرانه أن يتكلم بعقل وروية . فملك زمام نفسه
بسرعة . وقال : « دعيني أحدثك وأجيبك صراحة على سؤالك :
إنى جئت إلى هنا من أجلك أنت . ولست أرى داعيا لأن أخفى
عنك هذا . إنى أعيش سعيدا مع والدين برّين ، أعاونهما فى
شئون الدار ، وفى إدارة العقار . إذ ليس لهم من الأبناء غيرى .
وأعمالنا متعددة الشكول ، متشعبة النواحي . وأكبر ما أغنى
به المزرعة ، أما والدى فيدير المنزل بحمد وهمة . والوالدة
النشيطلة تعمل أبدا وتداب فى سائر مرافق الحياة . وما إخالك

الآن قد مارست هذه الأعمال جميعا ، وعرفت ما تسببه الخادמות
لربة الدار من عناء ، بالخيانة حينما وبالرغوة أحيانا . فتضطر
لأن تبدل خادما مكان خادم . وهى بهذا إنما تبدل نقصا مكان
نقص ، وعبوبا جديدة مكان العيوب القديمة . لهذا كانت أمتى
منذ عهد بعيد تتمنى أن ترى فى الدار فتاة تعاونها لا باليدى
فحسب ، بل بالقلب والضمير أيضا . فتكون لها عوضا من
ابنتها التى سلبتها المنون إياها من قبل .

« واليوم وقد أبصرتك إلى جانب المركبة ، ورأيت
الساعدين القويين . والصحة البادية فى كل جارية من الجوارح
وسمعت منك الألفاظ الممتلئة عقلا ، تملكنى الدهشة والاعجاب
وعدت مسرعا إلى الدار . وجعلت أمدح هذه الغريبة بالذى
تستحقه أمام الوالدين والأصدقاء . والآن عدت إليك لأحدثك
بالذى يبغونه منك . . اغفرى لى ترددى فى الكلام وحيرتى . .
فقلت له : « لا تخش ضيرا فى أن تتم حديثك ، وليس
فى الذى ستقوله ما يشينى . وإنى لم أحس . وأنا أصغى إليك
غير عاطفة الشكر ، فقل بصراحة ما تريد أن تقوله . فليس فيه
ما يزعجنى . إنك تريد أن تدعونى لأكون لوالديك خادما

أمنية ، كي أعني بشئون منزلكم ، الذى أعددتموه أحسن اعداد .
وأنت تظن أنك ستجد فى فتاة جادة ، تقبل على العمل باسمه
الشعر ، ليس فى طبعها خشونة ولا جحود . . لقد كنت فى
عبارتك موجزاً . وسيكون ردى عليها موجزاً . أجل إنى قابلة
أن أذهب وإياك وأن ألبى نداء القدر . وقد أتممت ما على هنا
من واجبات . فأسلت النفساء إلى أهلها ، وكان سرورهم
بالنجاحة لاحدله . وأكثر الشريدين قد التقوا بذويهم ؛
والآخرون سيتقابلون قريباً : وهم جميعاً يحسبون أن سيعودون
إلى أوطانهم بعد أيام قلائل : وهذا دأب الطريدين إذ يغربون
بأنفسهم . أما أنا فلا أخدع نفسى بالأمانى الكذاب فى هذه الأيام
العصيبة ، التى تنذرنا بما هو أشد منها هولاً . إن الروابط التى
تصل بين أواصر العالم قد انحلت عراها . فأى قوة تستطيع
أن توثقها مرة أخرى . اللهم إلا قوة الشقاء الجسيم ، الذى
يتهددنا ويوشك أن يحل بنا ؟

«وائن أتيح لى أن أكون خادماً فى بيت رجل جليل ، وأن
أعول نفسى من هذا السبيل ، فى رعاية امرأة طيبة صالحة ،
فانى أقبل هذا عن رضى وارتياح . والفتاة التى تقضى أيامها

في التنقل من أرض إلى أرض ، يكثر حمله القيل والقال .
أجل إنى ذاهبة معك ، فأملنى حتى أحمل الجرتين الى
الأصدقاء ، وتعال لكى تراهم حين يستقبلونا . »

أصغى الفتى مسرورا إلى هذا القرار الذى قطعته الغادة
عن رضى وارتياح ، وجمال يسأل نفسه هل يفضى إليها
بالحقيقة الآن ؛ فبدا له أن الأوفق أن يتركها وما توهمت ،
ثم يذهب بها الى منزله ، فلا يحدثها حديث الحب إلا هناك .
ثم لاحظ في شئ من الأسف أن باصبعها خاتما من الذهب .
فلم يحر كلاما ، وأكتفى بالانصات لما تقول .

فقالت له : « لنرجع أدراجنا الآن ! فان الناس
يوجهون قارس اللوم إلى الفتيات ، اللواتى يطلن المكث عند
البئر ، مع ان الكلام لدى الينبوع المتدفق من أحب الأشياء
الى النفس . »

عند ذلك نهضا واقفين ، ونظرا مرة أخرى فى الماء .
فبعثت هذه النظرة فى كل منهما احساسا رقيقا ، وشعورا عميقا .
ثم حملت الجرتين ممسكة بقبضتيهما . وصعدت الدرج
وهرمن على أثرها . وقد طالب إليها أن تناوله إحدى الجرتين كى

يقاسمها العبء الذى تحمله ، فقالت : « دعمها لى . فان فى حمل
الاثنين معا ، ما يبعث على اتران الجسم ، فلا يتعبنى حملها .
ويجب أن أذكر ان السيد الذى سيكون لى أمرا ، أولى به
ألا يقوم الآن بخدمتى . وفيم تنظر إلى هذه النظرات الحزينة ؟
كأن الذى أنا صائرة اليه أمر يبعث الحزن والهموم . ان واجب
المرأة يقضى عليها أن تتعلم كيف تخدم ، كى تؤدى وظيفتها
فى الحياة . فبالخدمة وحدها تستطيع المرأة ، مهما طال المدى ،
أن تنال السيادة التى هى بها جديرة وحقيقة . فتصبح لها فى
دارها الكلمة العليا .

« وهكذا تأخذ الأخت مبكرة فى خدمة شقيقها وفى خدمة
والديها . فحياتها أبدا حركة دائمة : جيئة وذهاب ، ورفع
 ووضع ، وإعداد أشياء وإجهاد للنفس من أجل الغير . . وما
أسعدها حين تعاد نفسها كل هذا . فلا ترى فى شئ غضاظة .
ولا ترهف فى عمل مهما كان حقيرا تافها . وسيان لديها فى
ساعات الليل تعمل أم فى ساعات النهار . . . أجل ما أسعدها
إذ تصبح وقد نسيت نفسها تماما ، فلا تحيا إلا من أجل الآخرين !
وما أحوجها إلى كل هذه الفضائل حين تغدو والدّة : حين

يوقظ الطفل الرضيع أمه ، طالبا الغذاء ، وهي بعد ضعيفة
هزيلة ، وما كفاها ما تعاني من ألم ، حتى تضطلع بهموم جديدة .
ولن يستطيع عشرون رجلا أن ينهضوا بهذا العبء ،
ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . وفي الحق أن هذا ليس من شأنهم ،
ولكن لا أقل من أن يعترفوا للبرأة بالفضل ، ويقابلوه
بالشكر . »

بهذه الكلمات نطقت الغادة ، مخاطبة رفيقها ، وهو لا
ينبس بكلمة . وقد اجتازا الحديقة ووصلا إلى فناء الجرن . حيث
اضطجعت النساء ، يصحبها الشقيقتان اللتان نجتا من الهلاك .
وقد دخلتا عليها في تلك اللحظة فاذا هما ملكان طاهران . ودخل
من الناحية الأخرى في الوقت نفسه ذلك القاضي الوقور .
ممسكا بيده طفلين قديست من لقاتهما أمهما المسكينة ، واستطاع
الشيخ الآن أن يجدهما وسط هذه الجماهير المضطربة . وقد
وثبا مسرورين ليحيا أمهما الراقدة . ويحيا الطفل الرضيع
الذي سيغدو لهما رفيقا يلاعبانه ويداعبانه . ثم وثبا نحو
دروتيه وسلبا تسليم الصديق المتحمس . وطلبا منها خبزا وشرابا
وماء ليشربا : فأمسكت الجرة وناولتهما الماء فشرب الاطفال ،

وسقت النفساء وأختيها ، وسقت القاضي . وقد شربوا جميعا
وارتووا ، وأثنوا على الماء القراح ، الذي طاب مذاقا ، وفيه
غذاء وشفاء .

وعند ذلك قالت الغادة وهي تنظر اليهم نظرات جد :
« أيها الأصدقاء ! إني لأخشى أن تكون هذه آخر مرة أدنى
الجرة إلى ثغوركم فأبلى بالماء شفاهم . ومنذ اليوم ، اذا اشتد
بكم الحر فلتم إلى الظل تطلبون الراحة ، وتطفئون الغلة إلى
جانب عين جارية . فهنا لك فلتذكروني ، ولتذكروا ما قمت
به من خدمة كان يبعثها حيي لكم ، لا مجرد القرابة التي تجمعنا .
أما ما أسديتم إلي من جميل فاني ذاكرته مدى الحياة . لعمرى
إني لأحزن لفراقكم . ولكننا أصبحنا بحال أنا فيها أدنى أن
أكون عبئا عليكم من أن أكون عوناً لكم . وإذا حيل بيننا وبين
أوطاننا فليس لنا بد - قريبا أو بعيدا . من أن نتفرق في بلاد
الغربة .

« انظروا ! هذا هو الشاب الذي ندين له بهذه الهدايا : بهذا
الكساء للطفل الرضيع ، وتلك الاطعمة الشهية . لقد أقبل
الساعة يسألني أن أذهب الى داره ، لكي أقوم بخدمة والديه

صاحبي الغنى والجاه . فلم أرد هذا الطلب . لأن واجب الفتاة
يقضى عليها بأن تخدم : وانها ليشق عليها أن تجلس في البيت
مستريحة . تاركة لغيرها أن تقوم بخدمتها . لهذا سأمضى منشرة
الصدر مع هذا الشاب ، وقد ألفتة عاقلا ذكيا : وكذا سيكون
الوالدان من غير شك . كما يليق بقوم ذوى يسار .

« فيا صديقتي العزيزة أستودعك الله : ولتقر عينك برضيعك
الذى ينظر إليك الآن نظرات ملؤها الصحة والحياة . فاذا
ما ضممته إلى صدرك وهو في هذه اللقائف المتعددة الألوان .
فاذكري الشاب الذى أهداها إلينا . والذى سأنال منه أنا أيضا في
المستقبل ما به اكتسى واغتدى . وأنت أيها الرجل الجليل
(مخاطبة القاضي) لك منى جزيل الحمد على أن كنت لى أبا
ونصيرا فى مواقف عديدة . »

ثم ركعت جاثية بجانب الأم الراقدة . وقبلت وجها بللته
العبرات . وأنصت إليها ، وهى تمطرها صالح الدعوات
بصوت هادىء خافت .

وفى هذه اللحظات كان القاضي الفاضل يقول لهرمن .
« إنك أيها الصديق لجدير بأن تعد من أعقل أصحاب المنازل . »

الذين يعرفون كيف يختارون لادارة دورهم أكثر الناس
دراية وكفاية. وعهدى بالناس اذا أرادوا اقتناء الخيل أو
البقر أو الغنم ، سواء بالمبادلة أو بالشراء ، ان ينعموا النظر .
ويحققوا .. ويدققوا . أما الانسان الذى يستطيع أن يصلح
كل شئ فى الدار ويحفظه ، ان كان صالحا ، وأن يفسد كل شئ
ويخرب كل شئ بالخرق والطيش . فانه يوثق به إلى الدار
بمحض الحظ والمصادفة . فلا يلبث أصحاب الدار أن يندموا
على تسرعهم حين لا يجدى الندم . أما أنت فيبدولى أنك قد
فهمت هذا الأمر جد الفهم . وقد لعمرى عرفت كيف تختار
لخدمتك وخدمة أبويك فتاه قل نظيرها . . فاقدرها حق
قدرها ! وما دامت هى القائمة على يتكم . فلن تشعر بفقد
الأخت . ولن يحس أبواك فقد ابنتهما . »

وفى تلك اللحظة أقبل كثير من أقارب النساء يحملون
الهدايا . ويسوقون إليها البشرى بأن ستنقل الى مسكن خير
من الذى هى فيه . وقد سمعن جميعا ما قر عليه رأى الفتاة .
فنظرن إلى هرمن نظرات ذات معان . تنبئ عما يدور
بخاطرهن من أفكار يحاولن إخفاءها . وقد مالت واحدة منهن

الى صاحبتي وهمست في أذنها قائلة : « ولئن انقلب المولى
عروسا فقد سعد جدّها . »

عند ذلك قبض هرمن على يدها وقال لها : « هلم بنا ! إن
النهار يوشك أن ينقضى . والبلدة بعيدة . » فجعلت دروتيه
تعانق النساء ، وهي تودعهن . فجذبها هرمن وهي تحي الجميع
أحسن تحية . وأمسك الأطفال بشوبها وهم سيكون ويتحبون
ولا يريدون أن يدعوا أمهم الثانية تغادرهم . فجعلت كل من
النساء تأمرهم بأن يخلدوا الى السكون ، قائلة : « لم هذا البكاء ؟
وهي انما تذهب إلى المدينة لتأتيكم بتلك الحلوى الكثيرة .
التي أوصى بها أخوكم الرضيع . حينما حملة اللقلق الصغير إلى
هنا (١) مارا بدكان الحلواني . وسترونها بعد قليل . وقد
عادت اليكم بالقراطيس الذهبية الجميلة . »

هنا لك أطلق الأطفال سراهما . فانطلق بها هرمن . ولأيا
ما استطاع أن ينجو بها من كل هذا العناق . ثم من الاشارات
بالمناديل بعد أن ابتعدا .

(١) في بعض بلاد أوروبا اذا ولد طفل ، وجعل الاطفال الصغار يسألون من أين
جاء هذا الصغير : فيجيبهم الكبار بأن قد جاءه طير اللقاق أوشى آخر . والعبارة قد
تختلف قليلا من بلد إلى بلد

النشيد الثامن

MEL POMENE ملبوميني

(الرنه الماسي)

هرمن ودروتيه

انطلق الاثنان ، وأمامهما ذكاء قدمالت للغروب ، مستترة
خلف غشاء كثيف من السحاب المنذر بالرعد وبالأمطار .
والشمس من وراء ذلك القناع تبعث بنظرات ملتبهه ، طورا هنا
وطوار هنالك ، فتسكب على الفضاء أشعة سحرية مبهمه ، قد
كمن فيها نذير الشر .

قال هرمن : « عسى ألا يرسل إلينا هذا السحاب المكفر
برّداً أو وابلا منهمرا ، فيفسد غلة هذا العام على حسنّها . »
وقد سر الاثنان لمنظر القمح ، وقد تمايلت سنابله على
سوقه . ويوشك أن يبلغ في الطول قامة الصديقين اللذين

يسيران وسطه الآن .

وقالت الفتاة لصاحبها : « أيها الرجل الصالح ، الذي أمسيت
له مدينة بهذا المصير الحسن ، وبهذه الدار التي ستؤويني وتظلني ،
بينما يبئس كثير من الطريدين في العراء ، عرضة للعواصف
والأمطار . حدثني الآن ، وقبل كل شيء ، عن أبويك اللذين
سأقوم بخدمتهما ، واللذين أميل إليهما بكل قلبي . فأطلعني على
جالية أمرهما . لأن من عرف مولاه سهل عليه أراضؤه . بأن
يكون حريصا على كل شيء يراه هو في المرتبة الأولى ، وقد
وقر في نفسه أنه أكثر خطرا من كل شيء سواه . لهذا سألتك
أن تخبرني كيف أستطيع ارضاء الوالد والوالدة . »

فأجابها الفتى : « إنك أصبت كل الاصابة إذ تسألين عن
خلق الوالدين وعن طباعتهما . فقد قضيت عمري وأنا أحاول
عبثا خدمة أبي وارضائه بأن أقوم بإدارة العقار كله ، كمائنا
أديره لنفسى ، وأتعهد الحقول والكروم صباحا ومساء . أما
والدتي فمن السهل أن أكسب رضاها ، لأنها تقدر الجهد وحق
قدرها .

وأنت أيضا ستصبحين لديها خير الفتيات وأفضلهن ، إذا

عנית بأمر المنزل كأنه منزلك . أما والدى فليس من هذا الطراز ، لأنه يحب المظاهر البراقة الخلابه . ولا تهمني أيتها الفتاة الطيبة بالبرود أو بالقسوة ، أن كشفت لك عن أمره ، وأنت بعد غريبة عنا . وإنى أقسم لك أن هذه أول مرة انطق فيها بمثل هذا القول . وما أنا ممن يحبون كثرة القيل والقال . لكن مرآك يبعث الثقة فى النفس . ويجعلنى مطمئنا لأن أحدث اليك فى مثل هذه الأمور . فوالدى يتطلب فى الحياة شيئا من المداهنة . ويود أن يبالغ الناس فى اظهار الحب له والاحلال والاكرام . ولقد يسر أحيانا من خادم خائن يعرف كيف يستغل طبعه هذا ، وبالعكس قد لايسره المخلص الأمين . »

فقالت الفتاة وهى تسرع الخطى . وقد أخذ الليل يرخى سدوله : « لكننى أرجو أن اكتسب رضى الاثنين . فطبع الأم موافق طبعى تماما . وعدا هذا فانى قد ألفت منذ الصبى أن الألف وأجامل . فان جيرانا الفرنسيين فى الزمن الغابر (١) كانوا يجعلون للادب واللياقة أهمية كبرى . فكان التمسك بالآداب فرضا على الأشراف النبلاء وعلى الطبقات الوسطى

(١) أى قبل أن تبدل الثورة من طباعهم

من أهل المدن ، والفلاحين العاملين على حد سواء . فكان الكل
 يفرضها فرضا على أهله وعشيرته . وقد سرت إلينا ، نحن
 جيرانهم من الألمان ، تلك العادات ، فترى الاطفال عندنا
 في الصباح يقرءون الآباء السلام . مكبين على أيديهم يقبلونها
 مظهرين نحوهم كل إجلال وإعظام . وهكذا أبهم طول النهار .
 فهذه كلها أمور ألفتها ودرجت عليها منذ الحداثة حتى
 باتت لي طبعاً وخلقاً . وسأبديها كلها تلقاء الشيخ الوالد .
 ولكن من مخبري الآن كيف ألقاك أنت وكيف أعاملك :
 أنت الابن الوحيد الذي سيكون لي في المستقبل سيداً أمراً ؟
 وعند ما نظقت الفتاة بهذه العبارة . كانت قد وصلت
 ورفيقها إلى شجرة الكمثرى . وقد أشرق البدر التمام ،
 وجعل يرسل ضياءه من السماء ، واختفت الشمس تحت
 الأفق فلم يبق منها شعاع ولا ضياء : فكان أمامها أنوار مضيئة
 كأنها النار الساطع ، وظلال معتمة كظلام الليل البهيم .
 وقد أنصت هرمن إلى ذلك السؤال ، وهو واقف معها
 تحت ظل الدوحة الباسقة ، في أحب بقاع الأرض إلى نفسه .
 حيث كان يندري الدمع في ذلك اليوم بعينه ، من أجل هذه

الطريدة الواقعة بجانبه .

جلست الفتاة في ظل الدوحة لتستريح قليلا . فأجابها
الفتى العاشق على سؤالها ، وهو قابض بيده على يدها : « دعي
قلبك يوح إليك بما تفعلين ، ثم أجيبي وحيه ، ولبي ندائه
في كل شيء . »

ولم يحجروا أن يزيد على هذا حرفا ، وكان الوقت مؤاتيا ،
والفرصة سانحة ، ولكن خشي أن يتعجل كلمة النفي . وآلمه
حين قبض على يدها أن أحس ذلك الخاتم على أصبعها . ولهذا
جلس الى جانبها لا يحرك ساكنا ، ولا ينطق بكلمة .

لكن الفتاة قطعت جبل الصمت وقالت : « ما أبدع ضياء
البدر وما أعذبه ! إنه ليحاكي ضوء النهار ، حتى لا بُصر من هنا ،
في جلاء ووضوح ، ديار المدينة وقصورها ، وأرى هناك غرفة
تحت نافذة ، ولقد استطيع أن أحصى ما بها من قطع الزجاج . »
فقال الفتى وهو يكتم عواطفه : « ان هذا الذي تريته هو
منزلنا . حيث أذهب بك الآن . وتلك الغرفة الملاصقة
للسقف هي غرفتي ، وقد تغدو غرفتك قريبا . لأننا كثيرا
ما نغير من نظام المنزل . وهذه هي مزارعنا ، وقد نصبت

ثمّارها وحان وقت الحصاد . وفي ظل هذه الشجرة نجلس وقت
الظهيرة لتتناول غداءنا .

والآن هلم بنا نمش وسط الكرمة ، ثم نجتاز الحديقة
إلى الدار . فاني أرى السحاب المطير يوشك أن يغشانا ويغشى
البدر التمام ، وهذى بروقه أخذت تلعب .

ثم نهضا من تحت الشجرة ، وجعلنا ينحدران وسط
المزرعة ، ما بين قمح قد علا ونما وسرهما ما يحيط بهما من
ضياء لامع منتشر . ولم يلبثا أن وصلا الى السكروم ، وتحت
عرشها ظلام حالك ، فجعل الفتي يقودها ، وهو ينزل بها
تلك الدركات الحجرية الخشنة . الممتدة وسط العريشة .
فأخذت الفتاة تنزل في ريث وأناة . مسندة يديها الى كتفيه .
وكان القمر يطل عليها من خلال السكروم بأشعة ضعيفة تهتز
وتضطرب . ثم لم يلبث أن غشيته السحب وخلفها في ظلام
قاتم . فجعل هرمن يمشى بتؤدة ، والفتاة مستندة اليه ، على
قوتها . وهي تمشي خلفه بدركة واحدة . ولكنها لجمها الطريق .
ولما بالدرج من خشونة وسوء انتظام ، تعثرت في مسيرها .
وزلت بها رجلها . وكأما التوت قد منها ، فسمع لها صوت .

ومالت الفتاة لتهوى ، لولا أن أدار الشاب وجهه مسرعا ،
وبسط ذراعيه وأمسك بيها جسمها المحبوب ، فسقطت متساندة
على كتفيه ، وقد ألصق في تلك اللحظة صدرها بصدره ،
ولامس خدها خده ، ووقف هو ساكنا كأنه تمثال من المرمر .
وليس في قلبه ذرة من العيب . فلم يضمها الى صدره إلا بمقدار
ما يمنعها من السقوط . ومع ذلك فقد كانت عينا جميلا ،
وكان يحس حرارة صدرها وقد لامس صدره ؛ وعبير أنفاسها
الشافية يهب على شفثيه . لكنه كان محتملا لجمالها ، وليس في
صدره غير شعور الرجل القوى العزيمة .

أما هي فسرعان ما أخفت ما بها من ضر ، وقالت وهي
تضحك : « في عرف الناس ذوى العقل والبصيرة ، اذا التوت
الرجل عند عتبة البيت فان هذا ينذر بشر مستطير . وكان
أولى بك أن تجد لي فألا خيرا من هذا الفأل . والآن فليتمهل
قليلا ، كي لا يلومك أبواك على أن أحضرت اليهم خادما
عرجاء . فنبذوا أمامهم رباً دار كثير الاهمال . »

....

النشيد التاسع

أورانيا URANIA

(الهة الفلك)

مستقبل !

أى آلهات الفنون (١) ! يا من يسهن أن يحسن إلى
العاشقين المغرمين ! لقد أخذت بيدهما الفتي الصالح، وسلكتن
به اسلم الطرق، حتى لقد ضممت صدره إلى صدر حبيبته،
من قبل أن تعقد بينهما خطبة، ألا فلتساعدن الآن على توثيق
تلك الرابطة التي ستجمع بينهما، ومزقن تلك السجب التي تعكر
صفاء سعادتهما. واقصصن علينا، قبل كل شيء، ما يجري الآن بالدار.

(١) الاستنجد بالموزات (Musen) شيء مألوف في الشعر الحماسي . ولكن
جوته لم يلجأ إليه إلا في هذا الموضع . بعد أن كاد يفرغ من كتابة قصته في أسلوب
سهل خال من كل تكلف

عادت الام للمرة الثالثة الى حجرة الرجال ، وقد بلغ منها
القلق مبلغه ، وكانت قد غادرتها منذ لحظة ، حينما طغى السحاب
على القمر ، واحست بدنو العاصفة . وساورها الخوف على
ابنها ، لتخلفه إلى تلك الساعة وسط الليل البهيم وأخطاره .
فجعلت توجه إلى الصديقين قارس اللوم ، إذ رجعا دون
أن يتحدثا إلى الفتاة . أو يقولوا كلمة من أجله . بل تركا الفتى
وشأنه ، وعادا مسرعين .

فقال لها الوالد : « لا تجعلى الشر أسوأ مما هو ! فنحن
مثلك قد أضجرنا الانتظار ونريد أن نستقر على حال . »
وأخذ الصيدلى يتكلم بهدوئه المعهود دون أن يتحرك من
مكانه ، فقال : « حينما تمر بي ساعة كالتى نحن فيها الآن ، يستحوذ
فيها على الناس القلق ، وينضب معين الصبر ، عند ذلك
أبادر بشكر والدى المرحوم ، الذى استأصل من نفسى جذور
القلق والضجر ، حين كنت فى الدار صبييا : فلم يبق منها فى
صدرى أثر . وأمسييت حليما صبورا ، كأكبر العقلاء
وأحزمهم . »

فقال له القسيس : « وأى آلة استخدمها أبوك الشيخ
للموصول الى هذا الغرض ؟ » فأجاب الآخر : « يسرنى أن
أقص عليكم ذلك القصص . وفي وسع كل منكم أن يستفيد
منه أجل الفوائد . كنت مرة - وأنا بعد صبي - أنتظر بفارغ
الصبر قدوم المركبة التي ستقلنا في يوم الأحد إلى البئر تحت
أشجار الزيفون . لكن المركبة لم تجيء . فجعلت أجرى
كالوزغة من مكان إلى مكان . صاعدا نازلا : طورا أنظر من
الباب ، وطورا أطل من النافذة . وأحسست حكة في يدي ،
فجعلت أحدث في المائدة خدوشا ، واضرب الأرض برجلي ،
بل كدت أبكي بكاء . . . رأى الوالد كل هذا وهو في
سكونه المألوف . ولكنه لما آنس أن الهياج قد بلغ منى درجة
الجنون ، أخذ بذراعي في هدوء : ومشى بي إلى النافذة . وألقى
على سمعي هذه العبارة الحكيمة : « أنظر الى هناك ! ترى ذلك
النجار قد أغلق دكانه اليوم ! لكنه سيفتحه غدا : وعند ذلك
يتحرك المنشار وتتحرك (الفأرة) ولا يزال يحدو ويعمل من
الصباح الى الماء . . . لكن تذكر ولا تنس أنه سيأتي يوم
يشغل فيه ذلك النجار هو وجميع مساعديه ، كي يصنعوا لك

نعشا، يمشونه ويتمونه بسرعة. ثم يبادرون بنقل هذا المنزل الخشبي إلى هنا ، وهذا المنزل هو المصير الذي يؤول إليه الناس جميعا سواء منهم من كان صابرا ، أو من كان ضجرا ، وبعد ذلك يوضع المرء تحت سقف ثقيل .

« كل هذا رأيته ماثلا في خاطري : فكأنما رأيت الألواح تمد ، واللون الأسود يعد ، لكي تصبغ به الألواح . عند ذلك زالني الضجر ، وجلست أنتظر المركبة في صبر وسكون . ومنذ تلك اللحظة ، اذا أبصرت الناس في هرج ومرج من جراء أمر أقلقهم انتظاره . عند ذلك يخطر النعش ببالى فألزم الهدوء . » فتبسم القسيس ضاحكا وقال : « ان منظر الموت ، وإن أثر في النفس ، لا يزعج الرجل العاقل ولا يرى فيه المؤمن أنه الغاية التي ليس وراءها شيء . فأما الأول فان منظر الموت يثير في نفسه روح الجد والعمل ، وأما المؤمن فانه يقويه في ساعة المحنة بما يبعثه في نفسه من الأمل في السعادة المقبلة (١)

(١) أى أن الناس أمام الموت إما رجل « يتهدى بفكره أو رجل يهده إيمانه ودينه . وليس معنى هذا أن المتدين لا يفكر أو أن المفكر لادين له . ولما جاز القسيس أن يقوه بهذا الكلام . وكل ما هنالك أن الانسان اذا استرشد بفكره أو بإيمانه فليس في الموت ما يدعو إلى الجزع .

فيصبح الموت في نظر كل منهما هو الحياة بعينها . . . وقد كان خطأ من الوالد أن صور لابنه — وهو بعد ذو شعور حساس — الموت ، في شكله الرهيب ، وإنما يجب علينا أن نرى الشباب ما في الشيخوخة من نضوج وجلال ، ونرى الشيوخ منظر الشباب ، لكي يجد الاثنان لذتهما في مراقبة تلك الدورة الأبدية ، وكلها حياة في حياة . »



في تلك اللحظة فتح الباب ، وظهر الفتى والفتاة ، في روعة وفي جلال ، فدهش الصديقان ، ودهش الأبوان إذا بصرا العروس ، وقوامها يكاد يدنو من قوام الفتى ، حتى لقد خيل اليهما أن الباب أصغر من أن يسع هذين القوامين السمهرين . خطا الاثنان معا فوق العتبة ، وبادر هرمن بتقديمها لوالديه بألفاظ عجيبة سريعة . فقال : « هذه فتاة تتمنيان أن يكون لديكما مثلاً . فأكرم وفادتها أيها الوالد العزيز ، وأنت يا أماه ! سلبها عن شؤون المنزل جميعا ، لكي تدركي أنها أجدر الناس بأن تقربها اليك ، وتدنيها منك . » والتفت هرمن الى القسيس ، واتحى به ناحية ، وقال له

همساً : « أيها السيد الجليل ! أعني بالله على الخروج مما أنا
 به من مأزق . وساعدني على حل عقدة ، أخشى أن تسوء
 حالها ، إن لم تتداركها بسرعة . فأني لم أطلب إلى الفتاة أن
 تكون لي خطبة . وهي تظن أنها تنزل البيت خادماً ، لا
 عروساً . وأخشى أن تفر هاربة منا لمجرد ذكر الزواج .
 فلنمض في سبيلنا بسرعة ؛ ويجب ألا ندعها في خطئها هذا
 طويلاً . وأنا كذلك لا أطيق البقاء في ظلام الشك طويلاً .
 فأسرع بربك ، وأظهر الآن ما نعهده فيك من عقل وحكمة . »
 عند ذلك التفت القسيس الى الجماعة يريد مخاطبتهم ،
 ولكن كانت الفتاة ، ويا للأسف ، قد أخدمها الكدر مأخذ ،
 حين أنصت لمقالة الوالد ، ولو انه تكلم بنية حسنة . وبفكاهته
 المألوفة . فقال : « نعم ما فعلت يا بني ! ولقد سرني ان يتشبه
 الولد في حسن ذوقه بالوالد ، الذي كان لا يصطحب الى
 المراقص غير أجمل الفتيات . ثم اختار أخيراً أبهى النساء
 زوجاً له وها هي الآن : الأم العزيزة المحبوبة . ولعمري إن
 الرجل — عند اختياره لزوجته — ليعان للناس عن حصافته
 وعن عقله . وعما اذا كان يأنس في نفسه فضلاً وجدارة . أما أنتما

فلم تكونا بحاجة الى تفكير طويل ، قبل أن تقطع ايرأى . وأنت
يا ابنتى ما كان لك أن تترددى طويلا فى قبول هرمن .
وكان هرمن فى تلك اللحظة يخاطب القسيس ، فلم يسمع من
كلام أبيه الا نصفه ، ولم يكديعى ما تضمنه حتى جعلت جوارحه
ترتعد ، وقلبه يخفق . وساد السكون فجأة . وصمت الجميع .
أما الفتاة فقد جرحت عزة نفسها لكلام حسبه تهكما ،
وسخرية منها . وبلغ الألم منها صميم القلب . وتصادد الدم الى
وجهها ، فغطى الحدين وصفحتى العنق . ولكنها لم تكت نفسها ،
وحاولت جهدا اخفاء ما تحسه من ألم . ثم قالت للشيخ :
« لعمري ان ابنك لم يعدنى لمثل هذا اللقاء ، حينما وصف لى
السيد الوالد ، بأنه كأحسن ما يكون عليه أهل المدن من كمال
وفضل . . ومع على أننى الآن بين يدي رجل أوتى من العلم
والأدب النصيب الأوفر ، ويعرف كيف يعامل كل انسان
بما هو أهل له . فانى أظنك لا تحسن عطفاً ولا رحمة نحو
هذه البائسة المسكينة ، التى دخلت دارك الساعة لسكى تسهر
على خدمتك . ولو كنت تحسن نحوى القليل من الرحمة ،
لما خاطبتنى بكل هذا التهكم المر ، مهما كنت تحسبنى دونك

ودون ابنك منزلة وقدرًا . لقد جئت اليوم ، وليس بيدي غير
حقيقية صغيرة ، إلى منزل فيه سائر الأمتعة ، وقد توافرت فيه
جميع وسائل الراحة والسعادة للذين يسكنونه . بيداني أعرف
لنفسى منزلتها ، وأقدرها حق قدرها . فهل من النبل والكرم
أن أقابل ، بمجرد دخولي الدار ، بهذا التهمك الذي يوشك
أن يلقي بي إلى خارجها ؟ »

استولى على هرمن الرعب ، فأشار إلى القسيس أن يتدخل ،
ويبدد غيوم هذه الأغلاط . فبادر هذا الرجل العاقل ، وأقبل على
الجماعة . ورأى الفتاة الطريفة تتناهبها الكمد والالم ، واغرو رقت
عينها بالدمع ، فلم يشأ أن يحل عقده الشك فورًا . بل حدثته
نفسه أن يبلو أمر الفتاة أولاً ، ويستطلع دخائل نفسها :
فخاطبها بالفاظ يختبرها بها ، وقال : « حقا انك لمتسرة . قليلة
التروى ، أيتها الفتاة الغريبة . إذ قبلت على عجل أن تكوني
حادمة عند قوم تجهلهم وكأنك لم تفهمي أن هذا معناه أنك
ستكونين خاضعة لسلطان سادة آمرين ، ما دمت قد تعاقدت
معهم على القبول . وإن رضاك هذا ليحتم عليك الطاعة
والخضوع لأمر كثيرة . وليس أشق شيء في الخدمة تلك

الأعمال المنزلية المضنية . ولا العرق المتصبب من جراء المجهود
الجسماني الذي لا ينقطع . لأن ما يعانيه رب الدار من هذا
لا يقل عما يعانيه الخدم . كلا : بل أشق ما في الخدمة أن
تجاهلي مولاك إذا ساء خلقه ، وأن تحملي ظلمه إذا ظلم ، وأن
تنصتي إلى أوامره المتضاربة المتناقضة ، إذا كان مترددا لا يعرف
لنفسه رأيا قاطعا ، وأن تقبلي من ربة المنزل ما قد تبديه من
عنف وشدة ، فهي سرعان ما يملكها الغضب . وأن تتحملي
رعونة الأطفال . وما قد يبدوونه نحوك من قحة وغلظة .

« هذه كلها أمور تشق على النفس . ولكن احتمالها أمر
لا بد منه لتأدية الواجب المفروض على الوجه الأكمل ،
من غير ملل ولا تدمير . وأكبر ظني أنك لست على شيء من
المهارة في هذا . مع أنه ليس هنالك شيء أيسر من أن يمازح
المرء فتاة على إعجابها بأحد الفتيان . »

سكت القسيس ، لكن كلماته نفذت إلى قلب الفتاة
الحساس . فلم تعد قادرة على ضبط نفسها ، وظهرت أشجانها
الكامنة . فجعل صدرها يعلو ويهبط ، والزفرات المحرقة
تتصاعد منه . وقالت ، وهي تسكب الدمع غزيرا : « ان الرجل

الذى يتحدث بعقل وبمنطق ، ويريد أن يعظنا فى وقت
المحنة ، قلما يدرك أن كلامه الفاتر الرزين لا يغنى شيئا فى
تخفيف ذلك الشقاء . وأنتى لكم ، وأنتم فى السعادة والنعيم
تمرحون ، أن تحسوا ما قد يحدث المزح من ألم وعذاب ؟
أما المريض الذى شفه الضنى فانه يحس الأذى مهما كان
صغيرا أو تافها . ولن يجدينى الآن أن اتكلف الرضى
والسرور . بل ليظهر الآن ما لو كتتمته فى صدرى لكان فيما بعد
سببا فى ازدياد همومى ، بل لقد يسلمنى الى كمد يقتلنى على مهل .
« فدعونى الآن أرجع أدراجى . فما كان لى أن أبقى فى
الدار لحظة . بل الأجمل لى أن أنطلق الآن فالحق بأهلى وأقاربى
الذين خلفتهم وسط الشقاء ، لكى أسعى فى تحسين حالى
وحدى . أجل هذا هو رأي الذى لن أحيد عنه . ولهذا أريد
أن أعترف لكم قبل انصرافى بأمر كان فى وسعى أن أبقيه
سرا مكتما طوال السنين .

« ان ما لقيته من الوالد من التهم قد أثر فى أبلغ التأثير ،
لأننى رقيقة الاحساس شديدة الكبرياء ؟ فليس هذا مما
يليق بالخدامات ، بل لأننى حقيقة قد استشعرت فى قلبى ميلا

نحو هذا الفتى ، الذى قابلى اليوم ، منجدا ومنقدا ، ثم غادرنى
 فى الطريق ومضى ، فلم يزل بعدها ماثلا فى خاطرى . وجعلت
 أفكر فى الفتاة السعيدة التى اختارها قلبه . وحينما قابلته لدى
 البئر بعد ذلك فرحت فرحا شديدا ، كأنى قابلت أحد سكان
 السماء . ولهذا تبعته مسرورة حين طلب إلى أن أكون خادما .
 ولست أنكر أنى كنت أخدع نفسى أحيانا وأنا قادمة إلى هنا .
 فأصور لها أن قد لا يكون مستحيلا أن أصبح يوما به جديرة ،
 حين أصبح فى المنزل ذخرا وعونا لا يمكن الاستغناء عنه .
 « لكنى الآن أدرك البون الشاسع الذى يفرق بين الفتاة
 الفقيرة وبين الشاب ذى اليسار ، مهما رزقت من النشاط والفضل .
 » كل هذا أقصه عليكم كي تذكروا حقيقة ذلك القلب الذى
 جرحته كلمة قيلت مصادفة وعفوا ، وإنى لهذه المصادفة لشاكرة .
 والا فما يكون مصيرى إذا كنتم آملين وأحلامى فى صدرى ،
 وأتظن حتى أراه يقتاد عروسه إلى الدار بعد قليل ، وكيف
 أقدر حينذاك على تحمل كل تلك الآلام فى الخفاء ؟
 « أجل إنى لسعيدة إذ أنذرت منذ الساعة بالذى أتوقع ،
 وسعيدة أيضا لأنى أفضت بما يكنه صدرى ، والداء بعد ما يمكن

علاجه ، قبل أن يتأصل ويستفحل ، والآن حسبي الذي قلته :
وليس لى الآن ما أبقي هاهنا من أجله ، يعلونى الخجل
والاضطراب بعد أن أدليت بمكنون سرى : وبالأمال الكواذب
التي كانت تجول فى صدرى ، وسأذهب الساعة ، ولن يمنعنى
من الذهاب هذا الليل البهيم تغشاه السحب القاتمة ، ولا الرعد
القاصف ، الذى يصم الأسماع هزيمة ، ولا المطر الذى يتساقط
وابلا منهمرا ، ولا الرياح العاصفة وزئيرها المخيف ، تلك أشياء
قد مارسناها من قبل . حينما اضطررنا إلى الفرار ، تبعقنا الأعداء
عن كسب ، فها أنا ذى ذاهبة الى هنالك ، ولقد الفت منذ نزلت
بنا هذه الكوارث ، أن مضى فى سبيل وليس فى حوزتى شيء .
اذن استودعكم الله . لن أبقي هنا لحظة أخرى .

ولم تكذب تنطق بهذه الألفاظ ، حتى تراجعت الى الباب .
متأبطة الحزمة الصغيرة التى جاءت بها . لكن الأم بادرت
فطوقت الفتاة بذراعيها ، وصاحت بها وهى مندهشة حائرة :
« ويحك ما معنى هذا كله ؟ وما هذه الدموع التى لا أفهم لها
كنها ؟ كيف أدعك تبحرين الدار وأنت مخطوبة ابنى ؟ »
أما الوالد فنهض متذمرا ضجرا ، ونظر إلى الفتاة وهى

تتجنب ، وقال متأففا : « هذا جزائي إذن على أن أبديت
منتهى البشاشة والملاطفة ، أن تكون هذه المنغصات هي آخر
ما أختم به يومي . إن أبغض الأشياء إلى نفسي بكاء النساء هذا
وإعواهن . الذي يزيد في تعقيد مسائل كان من السهل حلها .
بقليل من العقل والروية . فعليكم أن تجدوا المخرج لأنفسكم
من هذا . أما أنا فذهاب إلى فراشي لاضطجع . » ثم تولى
عنهم ليذهب إلى حجرتة . التي لم يزل سرير الزواج منصوبا
بها . وكان من عادته أن يأوي إليها ليستريح .

لكن ابنه تعلق به ، وجعل يستعطفه قائلا : « لا تسرع
بالخروج أيها الوالد ! ولا يغضبك ما قالت الفتاة . فعلىّ وحدي
يقع إثم كل هذا الاضطراب ، وقد زاد الصديق الفاضل
الموقف حرجا ، على خلاف ما كنت أنتظر منه . فتكلم الآن
أيها السيد الجليل . فإليك أكل هذا الأمر كله . لا تزد مانحن
فيه من آلام ومخاوف . بل اكشف القناع عن كل شيء .
وإلا فلن أستطيع في المستقبل أن أجلك وأعزك . إذا كنت
الآن تسلك طريق المسكر ، بدلا من أن تصرف الأمور بما
عهدناه إليك من عقل ومن حكمة . »

هنالك تبسم القسيس الجليل ضاحكا وقال : « لقد كان من العقل وقد كان من الحكمة أن استدرجت الفتاة ، حتى أدلت بذلك الاعتراف البديع ، وأظهرت من سرها ما كان خافيا . ألم يكن من نتيجة هذا أن استحالت همومك فرحاً وسروراً ؟ فالآن لم يبق إلا أن تدلى أنت لها بما عندك ، ولا حاجة بك لأن يعينك في هذا ثالث . »

فتقدم هرمين الى الفتاة وقال لها في لطف وفي رفق :
« لا تندمى على ما أذريته من الدموع ، وما قد أحسست من ألم طارىء سرعان ما يزول . فقد كان في هذا إتمامٌ لسعادتي : وأرجو أن يكون فيه إتمام سعادتك أيضا .

« إنني ما ذهبت الى الينبوع لكي أسأل الفتاة الغريبة أن تكون عندنا خادما . بل ذهبت الى هنالك لكي أنشد حبك . ولكني ، وأأسفاه ! لم تستطع عيناى اللتان أغمضهما الحياء ، أن تبصرا أين يميل بك الهوى . وأين يدفعك قلبك . فلم تر العينان منك إلا الصداقة والأدب . حينما كنت تحمينني في مرآة ذلك الينبوع الصافي . ولقد كان في قبولك أن تصحبنى الى المنزل نصف سعادتي المنشودة . والآن قد أكملت على النعمة ،

فيوركت وحيدت ! »

هنالك نظرت اليه الفتاة وقد بلغ التأثير منها صميم القلب . فلم تمنعه حين تقدم اليها ليضمها ويلبسها . فقد كان في هذا بلوغ ذروة السرور ، وضمان لسعادة العمر التي ليس وراءها سعادة . وقد أفهم القسيس الآخرين حقيقة الموقف لكن الفتاة لم يكفها هذا بل تقدمت الى الوالد ، في أدب وفي ظرف ، وأكبت على يده فقبلتها رغم ممانعته . وقالت له : « إنك بما طُبعت عليه من عدل وانصاف ستعفو عن هذه الفتاة ، التي أذهلها ما سمعت وما رأت ، فجعلت تبكي بكاء الألم ، ثم أخذت تذرِف دموع الفرح ، فاصفح عما رأيت منها في كلا الحالين ، واثن لي بأن أنعم بكل ما أنا فيه الآن من بهجة وسرور ، وليكن ذلك الكدر الأول . الذي كان اضطرابي بعض أسبابه : ليكن الأول والآخر ، وأما ما تعهدت الخادم المخلصة بأن تؤديه من خدمة ورعاية ، فهذا كله ستؤديه الكنتنة الأمانة . »

فعانقها الوالد متأثراً وهو يخفي دمهعه ، وتقدمت الأم على مهل ، وقبلتها في عطف وحنان ، وأخذت بيدها تصافحها والدمع يتساقط من عيونهما دون أن يتحرك اللسان بكلمة .

هنالك تقدم القسيس الصالح ، دون أن يضيع لحظة ،
فاتزع من يد الوالد خاتم الزواج — ولم يكن هذا بالشىء السهل ،
لأن الاصبع السمينه جعلت اخراج الخاتم شيئاً عسيراً — ، ثم
انتزع من اصبع الأم خاتمها ، وعقد بالخاتمين خطبة الفتى
والفتاة ، وقال : « ليكن من حظ هذين الخاتمين الذهبيين ،
مرة أخرى ، أن يعقدا رباطاً وثيقاً ، يعادل الرباط الأول قوة
ومتانة ، إن هذا الفتى يحب هذه الفتاة حباً جما ، وهذه الفتاة
قد أقرت بأنها تميل اليه ، فأنا أعلن خطبتهما الآن ، وأباركهما
مدى الدهر . بموافقة الوالدين وشهادة صديقنا . »

وهنا انحنى الصيدلى ، وهو يدعو الدعوات الصالحة ، ولكن
لم يفقه أن رأى عند ما ألبس رجل الدين الفتاة الخاتم ، أن فى
إصبعها خاتماً آخر فأدهشه أن رآه الآن كما رآه هرمن من
قبل لدى البئر ، فأثار همومه ، فقال الصيدلى مازحاً متودداً :
« هل هذه إذن هى الخطبة الثانية ؟ ومن يدرينا لعل العروس
الأول أن يحىء الى المذبح فيقيم الموانع دون الزواج ؟ »
فقال الفتاة : « دعونى أخصص لحظة لهذه الذكرى ، التى
يثيرها هذا الخاتم : ذكرى الفتى الطاهر ، الذى وهبى إياه ،

يوم ودعني وسافر. ولم يؤب بعدها إلى وطنه. وكأما كان
عالما بما سوف يقع، حين قذف به إلى باريس حبه للحرية،
وشغفه بأن يلعب دوره في هذا العالم المتقلب المتحول. فكان
نصيبه هناك السجن والموت. وقيل سفره قال لي: « في
رعاية الله! اني منطلق الساعة. لأنى أرى كل شيء في العالم قد
تحرك مرة واحدة. وقد تقطعت بالناس الأسباب، وان
الشرائع الأساسية لأقوى الدول قد انفصمت عراها. وحيل
بين المالك القديم وبين ما يملك. وبوعدما بين الصديق
والصديق. واقترق المحب عن الحبيب، وهأنذا اغادرك
ها هنا، حيث أرجو أن ألقاك يوما ما. ومن يدري، فقد
يكون هذا آخر حديث أحدث به إليك. وما أصدق قولهم: إن
الانسان في هذه الدنيا في دار غربة... ولم يكن هذا القول
في يوم أصدق منه في يومنا هذا. فقد أصبحنا وليست الأرض
ملكنا لنا: وكنوزها الغالية ذاهبة أدراج الرياح. والذهب
والفضة قد فقدوا ما كان لهما من حرمة وتقديس، واستحلالا
الى صورة غير صورتها الأولى. وهكذا أصبح كل شيء في
اضطراب وفي حركة: كما نريد هذا العالم القائم أن يتحلل

ويتفكك — راجعا القهقري — وسط الفوضى والظلام
القائم ، لكي يلبس بعد ذلك ثوبا جديدا .

فأخلصى لى الحب : وان قُدر لنا أن نلتقى فوق أنقاض
هذا العالم ، فسنتقى كشخصين جديدين ، قد كوَّنا تكويننا
جديدا . وأصبحنا حَرين طليقين ، لا يخضعان لصروف
الأقدار . ولعمري كيف يقبل التقيد بقيد من استطاع أن
يعيش فى هذا الزمن العصيب ثم يخرج منه حيا ؟ .

أما اذا شاء القدر ألا يكون لقاء سعيد بعد هذه المحن
والأخطار . وأن لن يتاح لنا أن نتعاقق فى سرور مرة أخرى ،
عند ذلك فاحفظى ذكراى . واجعلى صورتى الخافقة أمام
خاطرك ، لعل فى هذا ما يبعث فى صدرك الهدوء والجلد ،
فلا يهملك بعدها أنزلت بك الكوارث أم غمرتك السعادة .
واذا استهواك منزل جديد ، وعلاقة جديدة ، فالعنى
شاكرا بما أعدته لك الأقدار ، وأخلصى الحب لمن يحبك .
وقايل الاحسان بالحمد والشكر . لكن حذار أن تسرفى فى
الحب ، خشية أن تحل كارثة جديدة فيؤودك وقع المصاب
المزدوج .

بورك لك في أيامك . ولكن حذار أن تنظري الى الحياة
 إلا كمتاع من الأمتعة . وليس كل متاع إلا خدعة وغرور (١) .
 تلك كانت الوصية التي أوصاني بها الفتي ذو النبل . ولم يعد بعدها
 إلى . وفي هذه الفترة فقدت كل شيء . وذكرت ألف مرة مقالة هذا
 وما أُنذرتني به ، والآن أيضا أذكر عبارته ، إذ أرى الحب قد هيا
 لي هنا سعادة جديدة . وأرى الأمل الجميل ما ثلا أمامي باسم الثغر .
 « أعف عني أيها الصديق الهام ، إذا كنت أرتعد الساعة
 وأنا ممسكة بذراعك ، فإن الملاح حين يضع رجله فوق أديم
 الثرى ، بعد الذي عاناه في أسفاره ، يحس بالأرض تحفق
 وتهتز تحت رجله ، مهما كانت ثابتة راسخة . »

هكذا تسلمت الفتاة . ثم ضمت الخاتمين أحدهما إلى
 الآخر . فأخذ هرمن يتكلم بصوت فيه رقة النبل وشهامة
 الرجولة . فقال : « أي دروتي ! لئن كانت الكارثة شديدة
 فادحة . فلتكن الرابطة التي تجمعنا اليوم أقوى وأشد . يجب
 أن تثبت وأن نصمد للحوادث ، وأن نحفظ بأنفسنا وبما ملكت

(١) ليس مجرد صدفة أن يكون هنالك شبه بين هذه العبارة وبين الآية (وما الحياة
 الدنيا إلا متاع الغرور) فإن جوته كان يعرف القرآن وتمثل ببعض من آياته .

إيماننا . فإن الرجل الذى يتزعزع ويضطرب فى هذه الأوقات
المزعزعة ، إنما يزيد الخطب هولا واستفحالا ، أما الذى
يثبت ويدأب ، فإنه سرعان ما يلم شعث هذا العالم .

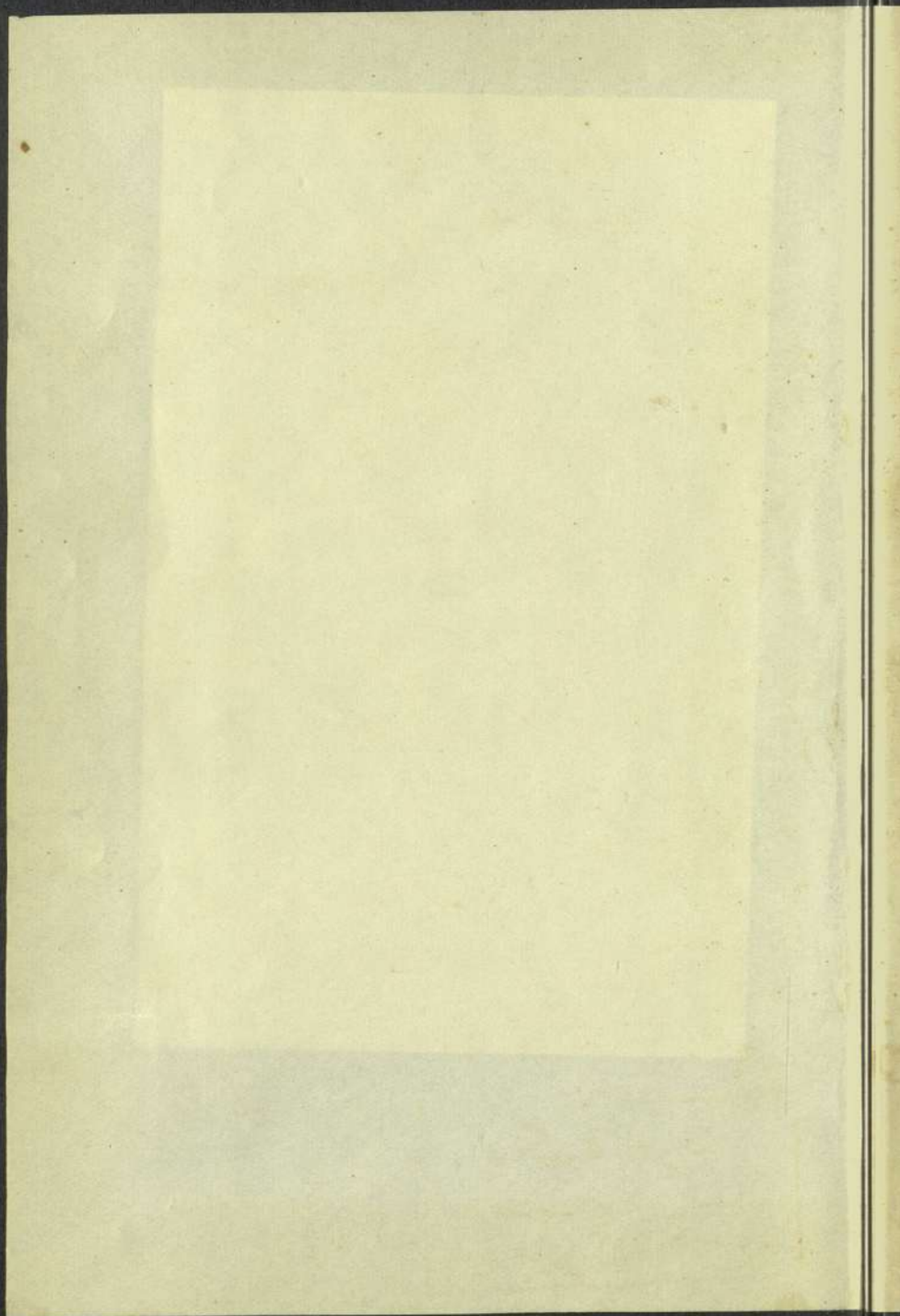
« وما ينبغي للأمانى أن يحاول نشر تلك الحركة الفظيعة
فى بلاده ، وأن يتردد من تجربة الى تجربة ، إن لنا مبادئنا وسننا
فلندكرها للناس صراحة ولنعلنها لهم ، ان الشعوب التى تثبت
على مبادئها ، والتى تجاهد فى سبيل الله وفى الذود عن الشرائع ،
وفى حماية الآباء والنساء والبنين ، أولئك يمدحهم الناس جميعاً ،
وان كان نصيبهم فى الحرب الهزيمة .

« اليوم قد أصبحت لى يادروتيه ! واليوم أصبح كل شىء
أملكه أعز على مما كان قبلاً . فإني الآن لا أحافظ عليه أو أنعم
به فى حزن واهتمام ، بل فى بسالة وقوة . ولئن تهددنا العدو
المغير . فى العاجل أو فى الآجل ، فلتسكونى أنت أول من يقلدنى
سلاحى ويعمدنى للقتال ؛ ولعلمى أنك خير من يرعى الدار
ويرعى الوالدين الحبيين . فإني سأعرض صدرى آمناً مطمئناً
للاعداء . ومتى أصبح جميع الناس يرون رأيى . فهناك
تقف القوة أمام القوة . وننعم كلنا بنعمة السلام . »

١٤٤ مكتبة العرب

مديرها : صلاح الدين البستانى

٢٨ من كامل هدى (الفعالة) القاهرة



DATE DUE



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

مكتبة الجامعة

هرمن ودرونييه

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031010



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

831

G599hA